

كتابي



الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوي»
الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com



المؤسسة العربية الحديثة
النشر والتوزيع
بمبادرة من: المؤسسة العربية الحديثة

ماي مراد



الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

الجزء الثانى

- ٢١ -

لم يبق الآن في قاعة الاستقبال إلا الأمير فاسيلي والأميرة الكبرى ، وقد انهمكا في الحديث ، جالسين تحت صورة كاترين . وما أن أبصرا بيير ومعه مرافقته حتى لاذا بالصيت ، وأخفت الأميرة شيئا — على ما توهم بيير — وغمغت :

— أنا لا أطبق مرأى تلك المرأة .

— وقال الأمير فاسيلي لانا ميهالوفنا :

— لقد أعدت كاتيش الشاي في حجرة الاستقبال الصغرى ، نأذهبي يا انا ميهالوفنا وتناولى هناك شيئا من الطعام وإلا خارت قواك .

ولكنه لم يقل شيئا لبيير ، بل اكتفى بالضغط على ذراعه بتعاطف ، ومضى بيير وأنا ميهالوفنا إلى حجرة الاستقبال الصغرى .

وقال لوران في خفة مكبوحة وهو يرشف الشاي من فنجان من الصيني الرقيق ليس له مقبض ، وهو واقف في حجرة الاستقبال الصغرى الدائرية لصق مائدة محملة بأدوات الشاي وأطباق المشاء الباردة :

— ليس هناك شيء يضاهي فنجان الشاي الروسي الممتاز في الإنعاش بعد ليلة مسهدة .

وكان جميع من في دار الكونت بيزوهوف في تلك الليلة قد تجمعوا — بقصد تجديد قواهم — حول هذه المائدة . وتذكر

بيير تمام التذكر حجرة الاستقبال الدائرية الصغرى هذه ذات المرايا والمناضد الصغرى . ذلك أنه عندما كانت تقام حفلات راقصة صغيرة في دار الكونت وكان بيير الذي لا يمكنه الرقص يحض الجلوس في تلك الحجرة الصغرى الملائمة بالمرايا ، ليرقب السيدات في ثياب الرقص وقد زينت اكتائهن العارية باللالى والألصاقات ، وهن يعبرن تلك الحجرة لينظرن إلى أنفسهن في المرايا الجيدة الأضاء التي كانت تعكس صورهن مرارا وتكرارا . أما الآن فهذه الحجرة نفسها خافتة الضوء ليست بها إلا شمعتان ، وفي منتصف الليل كانت أدوات الشاي وأطباق المشاء مبعثرة فوق المناضد الصغرى ، وكان أشخاص متنافرون في ثياب عادية بسيطة جالسين إليها ، يتهامسون فيما بينهم ، وقد أعبوا في كلمات لا تنسى عما هو جار في تلك اللحظة ، وما ينتظر أن يحدث في حجرة النوم .

ولم يأكل بيير شيئا مع أنه شعر بميل شديد إلى ذلك ، بل راح يلفت متسائلا نحو مرشدته ، فلاحظ أنها خرجت مرة أخرى على أطراف أصابعها إلى قاعة الاستقبال الكبرى حيث كان الأمير فاسيلي ما زال بصحبة الأميرة الكبرى . وخطر لبيير أن هذا أيضا جزء لا يتجزأ من الإجراءات ، وبعد برهة قصيرة اقتفى أثرها ، فإذا بانا ميهالوفنا واقفة بجسوار الأميرة ، وهما يتكلمان في آن واحد بنبرات مستثارة .

وقالت الأميرة التي كان واضحا أنها في مثل الثورة التي ابتتها عندما صفت باب حجرتها :

— اسبحى لى يا سيدتى ان اعرف ما ينبغي وما لا ينبغي
ان يعمل .

وكانت انا معها يلوفنا نقول بعناية ومحاولة للإقناع، وهي
تسد الطريق إلى حجرة النوم لكى لا تسمح للأميرة بالمرور .
— ولكن يا اميرتى العزيزة . . افلا يكون ذلك شديد
الوظافة على العم العزيز في مثل هذه اللحظة التى يحتاج فيها
للراحة ؟ إن الحديث في الأمور الدنيوية في الوقت الذى
تاهت فيه روحه فعلا كى . .

وكان الأمير فاسيلى جالسا في كرسى منخفض على
طريقته المعتادة وقد رفع ساقا فوق الأخرى عاليا ، ووجنتاه
تنتفضان بعنف ، حتى إذ هدأنا واسترخنا بدنا مرتختين
إلى أسفل ، إلا أنه كان يبدو بمظهر من لا يمينيه نقاش
السيدتين ، وهو يقول :

— كلا يا عزيزتى انا ميهاوفنا ، دعى كاتيش تقمص
كما ترى ، فانت تعرفين كم يحبها الكونت .

وقالت الأميرة مخاطبة الأمير فاسيلى ومثيرة إلى
حافطة الأوراق المرسعة التى بيدها :

— بل إنى لا اعرف ماذا في هذه الوثيقة ، فكل ما اعرفه
ان الوصية الحقيقية في المكتب، وان هذه مجرد ورقة منسية .
وحاولت ان تدور حول انا ميهاوفنا ولكن انا طفرت طفرة
أخرى صغيرة وسدت عليها الطريق من جديد . وقالت وهي
تمسك بحافطة الأوراق بقوة اتضح منها انها لن تفلتها مرة
أخرى :

— اعرف هذا يا اميرتى العزيزة الحلوة . ولكنى
أرجوك واتوصل إليك ان ترحييه .

ولم تتكلم الأميرة ، بل كل ما طرق الأسباع هو صوت
تجاذب الحافطة . ولم يكن ثمة شك في أنها لو تكلمت لما قالت
شيئا يبه إطرأ لانا ميهاوفنا التى شددت قبضتها على
الحافطة ، ومع هذا احتفظ صوتها بكل رصانته وخفونه وهي
تقول :

— تعال هنا يا بيبير ، يا ولدى العزيز . ولست أظنه
دخيل يا عزيزى الأمير على اجتماعنا العائلى . .

وعندئذ صرخت الأميرة فجأة بصوت عال سمعه كل من
في حجرة الاستقبال ودعروا له :

— لماذا لا تقول شيئا يابن العم ؟ لماذا لا تتكلم وها هي
منضوية قد أخذت على عاتقها ان تتدخل وتثير شجارا على
عتبة حجرة رجل يحتضر ؟ يا للمخلوقة المتأمرة !

وأخذت تجذب الحافطة بكل قوتها ، ولكن انا ميهاوفنا
خطت إلى الامام بضع خطوات كيلا تفلتها من يدها . فقال
الأمير فاسيلى في دهشة عاتبة وهو ينهض قائما :

— آه يا اسخف هذا . هيا املئهاها ، قلت لكها !
— فاملئتها الأميرة ، والتفت إلى المرأة الأخرى قائلا :
— وانت !

فلم نعره انا ميهاوفنا التقتا ، فقال :

— أنلتها قلت لك ! سأخذ الأمر كله على عاتقي .
سأذهب وأسأله .. دعيها !
نقالت أنا ميهايلوفنا :
— بل دعه أنت يا أمير يحظى بلحظة سلام بعد هذه
الأسرار المقدسة .

وانفتحت إلى الشاب الذي كان يحلق بمنعجا وهم
يدنو منهم في وجه الأميرة المستثار وقد تظلت عن كل مقتضيات
الوقار ومظاهره ، وفي وجنتي الأمير فاسيلي المنفضتين ،
وقالت له أنا :

— قل لي يا بيير ، ما رأيك أنت ؟
— وقال الأمير فاسيلي لأنا :
— تفكرى أنك ستحاسبين على عواقب هذا كله ،
فأنت لا تدريين ما أنت صانعة . وصرخت الأميرة وهي تثب
على أنا وتنفزع منها الحافظة .
— يا للمرأة الوقحة !

وأحنى الأمير فاسيلي رأسه ورفع كفيه إلى أعلى .
وفي هذه اللحظة انفتح فجأة الباب الرهيب الذي أملا
بيير التحديق فيه ، وارطم بالحائط ، وانبعثت منه الأميرة
الأخرى وهي تمصر يديها وقالت في يأس :
— ماذا بكما ! إنه يلفظ أخسر أنفاسه وأنت تتركني
وحدى .

فأسقطت الأميرة الكبرى الحافظة ، وسرعان ما انقضت
أنا ميهايلوفنا فاستولت عليها ، وجرت داخلة الحجرة .

واستردت الأميرة الكبرى والأمير فاسيلي رباطة جاشهما
واقتفيا أثرها . وبعد بضعة دقائق خرجت الأميرة الكبرى مرة
أخرى بوجه كالح جاف وهي تمص ثفتها السفلى . وما إن
وقع بصرها على بيير حتى اكتسى محباها بكراهية لا يمكن
كبحها ، وقالت :

— أجل . الآن لك أن تزمو ، فقد حصلت على ما كنت
تريد .

وانفجرت في البكاء وقد أخفت وجهها في منديلها ، وانطلقت
إلى خارج القاعة . وكان ثاني من برزوا من حجرة النوم الأمير
فاسيلي الذي مشى مترنحا إلى الأريكة التي كان بيير جالسا
عليها ، وغاص فيها مغطيا وجهه بيده . ولاحظ بيير أنه شاحب
وأن فكه الأسفل كان يرتجف . وقال الأمير وهو يمسك بهرطق
بيير ، وفي صوته صدق وضعف لم يكن يمهدها بيير نيه من
قبل ، وهو يقول :

— ما أكثر الخطايا والوان الخداع والغش التي فرتكها
وفيم هذا كله ؟ إنى لم أزل في الخمسين من عمري يا فتاى
العزیز .. وهذا كله ينتهى بالموت . ألا ما أبشع الموت !
وانفجر باكيا .

وكانت أنا ميهايلوفنا آخر من خرج ، واقتربت من بيير
بخلى خافتة ووثيدة وقالت له :
— بيير !

فتنظر بيير إليها متسائلا ، فقبلت جبينه وبللته
بدموعها . وظلت برهة لا تتكلم ، ثم قالت :

— لقد انتهى !

فرمقها ببير من فوق نظارته ، فقالت :

— تعال . ساعدوك . حاول أن تبكى ، فلا شيء يريح

كالدموع .

وقادته إلى حجرة الاستقبال المعتمة وسره الا يتمكن احد من رؤية محياه . وهناك تركته انا ميهايلوفنا . ولما عادت وجدته غارقا في النوم وذراعه تحت راسه .

وفي الصباح التالي قالت انا ميهايلوفنا لببير :

— نعم يا ولدى العزيز ، إنها لخسارة فادحة لنا جميعا .

ولست أنكم عنك . ولكن الرب سيقويك فانت شاب . وها قد صرت الآن ربثورة طائلة فيما أرجو . فالوصية لم تقض بعد . وانا اعرفك تمام المعرفة واعرف ان هذا لن يعطيك صوابك ، ولكن هذه الثروة ستلقى عليك تبعات وينبغى أن تكون رجلا . ولم يقل ببير شيئا . فاستطردت :

— وربما قلت لك فيما بعد يا ولدى العزيز إننى لو لم أكن هنا فانه أعلم ماذا كان من الممكن أن يحدث . وكما تعلم كان عمى وعدنى امس الاول مبشرة انه سوف لا ينسى بوريس . ولكن الوقت لم يتسع له . ولذا انتهى يا صديقى العزيز ان تنفذ انت رغبة ابيك .

ولم يفقه ببير كلمة واحدة ، واحمر وجهه خجلا ونظر ببلاهة إلى انا ميهايلوفنا التى تركته وربكت إلى دار آل روستوف حيث لوت إلى فراشها . ولما استيقظت فى الصباح أفضت إلى آل روستوف وجميع معارفها بتفصيلات وفناء

الكونت بيزوهوف ، وقالت ان الكونت مات على نحو ما كانت تحب هي شخصا أن تموت . فقد كانت وفاته مؤثرة ، وتصف بالسو ، وان اللقاء بين الأب والابن كان مؤثرا جدا حتى انها لا تستطيع تذكره من غير أن تخفقها العبرات ، وهي لا تدرى ايها كان أنبل من الآخر فى تلك اللحظات الرهيبة . اكان هو الأب الذى تذكر كل شيء وكل إنسان فى ساعة النهاية تلك ، فقال لابنه كلمات مؤثرة جدا ، أم هو ببير الذى كان مرآه يعزق نياط الفؤاد ، فما كان أشد انسحاقه وإن حاول جهده أن يخفى حزنه كيلا يؤثر على نفسية أبيه المحتضر . وقالت :

— وهذا كله اليم . ولكنه لا يخلو من فائدة للمرء . فيها يقوى العزم ويرفع الروح المعنوية ان ترى رجسالا كالكونت الشيخ وابنه الفاضل .

وحدثتهم «انا» عن افاعيل الاميرة والامير فاسيلى . ولكن فى طى الكتبان الشديد ، وبصوت هامس يفيض استهجانا .

— ٢٢ —

وفى « بليك هيلز » — ضيعة الامر نيقولاى أندريفتش بولكونسكى — كان الجميع يتوقعون وصول الامير أندريه وزوجته فى كل يوم . ولكن هذا التوقع لم يمرق الروتين اليومى المنظم الذى يتبعه اعضاء بيت الامير الشيخ . فقد

كان الأمير نيقولاى اندريفتش ذات يوم القائد العام للجيش ، وعرفه الناس في الأوساط الراقية بلقب « الملك البروسى » . ثم نفى إلى سفيته في عهد القيصر بول . وظل في بليك هيلز منذ ذلك الحين مع كريمة الأميرة ماريا ومرافقتها الأنسة « بورين » . بل إنه في عهد القيصر الجديد الذى سمح له بالعودة إلى العاصمة لم يفادر قط داره في الريف قائلا إنه إن أراد أن يراه ففى وسعه أن يقطع المائة وخمسين فرسخا من موسكو إلى بليك هيلز ، أما هو من جانبه فلا حاجة به لى أحد أو أى شىء . وكان من عادته أن يقول إن رذائل البشر كلها ليس لها إلا مصدران . الأولهما الكسل والتطير . وأنه لا وجود إلا لفصيلتين هما النشاط والفداء . وقد تولى بنفسه تعليم وتربية كريمة . ولكى ينمى فيها هاتين الصفتين الهامتين ظل يعطيها دروسا في الجبر والهندسة إلى أن بلغت العشرين من عمرها . ورسم لها خريطة حياتها كلها بحيث تظل مشغولة طسول الوقت . بل إنه هو شخصيا كان دائم الاشتغال بكتابة مذكراته . وحل مسائل في الرياضيات العليا ، وأبداع غلب النشوق بهجرطته ، والعمل في سبغاته أو الإشراف على إقامة الأبنية باستمرار في سفيته . ولما كان لابد لإنجاز الأعمال المختلفة من التزام نظام مطرد . لذا راعى هذا الالتزام إلى أقصى درجة في أسلوب حياته . فكانت وجباته تقدم له بطريقة ثابتة لا تتغير ، لا في ساعة معينة فحسب . بل وفي دقيقة محددة أيضا . وكان الكونت صارما شديد التدقيق مع كل من حوله بدءا بكريمة حتى خدمه . ولئن لم يكن قاسيا

إلا أنه يوحى دائما بدرجة من الاحترام والمهابة لا يحظى بمثلها أقصى الرجال . ومع أنه الآن في قائمة التقاعد ، ولا نفوذ له إطلاقا في الدوائر السياسية ، إلا أن كل مسئول كبير في الإقليم الذى توجد به ضيعة الأمير كان يرى لزاما عليه أن يزوره ، وعليه أن يتحمل ما يتحمله المهندس المعمارى والبستاني والأميرة ماريا من مشقة الانتظار إلى أن تحين الساعة المعبودة التى تعود الأمير دائما أن يهل فيها بطلعته على قاعة الانتظار العالية السقف . وكان كل من فيها يشعر بنفس الإجلال ، بل والهبة ، عندما يفتح باب المكتب الشديد علو وتبرز منه قامة هذا الشيخ الصغيرة ، بباروكة شعره المكسوة بالساحق ، وبديه الذابلتين ، وحاجبيه الأشبيين الكثين اللذين كانا عندما يقطب جببته يحجبان وبض عينيه الناقبتين الشابى النظرات .

وفي اليوم الذى توقعوا فيه وصول العروسين الشابين توجهت الأميرة ماريا كالعادة في الوقت المحدد من الصباح إلى قاعة الانتظار لتحيى أباهما ، وفي رعدة خوف رسمت على وجهها الصليب وراحت تقضرع إلى الله بصلاة صامقة ، فهي في كل يوم تذهب إلى والدها على هذا النحو ، وفي كل يوم تقضرع إلى الله أن ينقضى لقاءها بأبيها في ذلك النهار على خير . ومن خلال باب المكتب ترامت إليها أصوات المخرطة المنتظمة . وأمسكت الأميرة بالباب في استحياء ، وفتحته بخفوت ويسر ، ووقفت متخسبة في ممرجه ، وكان الأمير مشغولا بالعمل على مخرطته . فالتفت وراه ثم واصل عمله .

وكانت الحجرة مكتظة بأشياء من الواضح أنه دائم الاستخدام لها . فعلى المنضدة الكبيرة كتب وخطط ، وهناك خزائن كتب تتدلى المفاتيح من أبوابها الزجاجية . وهناك منضدة عالية ليكتب عليها الأمير وهو قائم ، وفوقها دفتر مخطوطات كبير مفتوح ، وهناك مخرطة النجارة وقد رصت عليها الأدوات وانتشرت نشارة الخشب . وذلك كله يوحي بأنشطة متنوعة متواصلة من منظمة . أما حركات قدم الأمير الصغيرة في حذائه التتري المطرز بالفضة ، وضغط يده الفحيلة المروقة الثابتة فتدل على أن هذا الشيخ لم يزل قوى الإرادة والأعصاب . وبعد عدة دورات أخرى رفع يده عن « بidal » المخرطة ، ومسح الفارة ثم أسقطها في جراب جلدي معلق بالمخرطة ، ثم اتجه صوب المنضدة ونادى كريمته . ولم يحدث قط أن منع ابنه أو بنته البركة المسيحية المعتادة ، ولذا اكتفى بأن قدم لها خده الذي لم يحلقه بعد وقال لها بصرامة — وفي حنان شديد في الوقت نفسه — وهو يشملها بنظره :

— هل انت على ما يرام ؟ .. عظيم ! اجلسي إذن !
وتناول كراسي تيرينات هندسية مكتوبة بخط يده ، وجذب كرسيه بساقه ثم قال بسرعة ، وهو يفتح الصفحة ويشير بظفره الخشن إلى إحدى الفقرات :
— لباكر .. انظري . هاك خطابا لك !

وأخرج من جيب ملقى على المنضدة مظهروما عليه كتابة بخط نسوي ، ووضعه فوق المنضدة ، فأحمر وجه الاميرة



كان الأمير مشغولاً بالعمل على مخرطته ، فالتفت وراءه ثم واصل عمله .

لم رأى الخطاب، وتناولته بسرعة وأكبت عليه ، فسألها الأمير ،
وقد افترت ابتسامته الباردة عن أسنانه الصفراء التى لم تنزل
قوية :

— من إليوز ؟

فاجابته الأميرة وهى ترمقه باسمة فى حياء :

— أجل من جولى ..

نقال الأمير بصرامة :

— سأسمح بمرور خطابين آخرين ، أما الثالث فسوف
أقرأه . فإنى أخشى أنكما تكتبان الكثير من اللغو . أجل سوف
أقرأ الثالث .

فازدادت حمرة وجهه الأميرة وقالت وهى تمد إليه
الخطاب :

— بل أقرأ هذا يا أبى .

فصاح الأمير باقتضاب وهو يدفع عنه الخطاب :

— بل سأقرأ الثالث . قلت الثالث !

وانكأ برمقه على المنضدة ، وجذب إليه كتاب الأشكال
الهندسية وانحنى عليه بجوار وجهها مباشرة ، واضمأ
إحدى ذراعيه على ظهر الكرسي الذى تجلس فوقه ، بحيث
أحسبت الأميرة انها محاصرة بالرائحة الحريفة التى تفوح من
الشيخوخة ومن الطبايق معاً ، وهى الرائحة التى اقترنت
فى ذهنها دائماً بوالدها ، وقال :

— انظرى يا سيدتى . هذه المثلثات متساوية : فالزاوية
أ ب ج .

فقطرت الأميرة فى تقديس إلى عيني أبيها المشعنين إلى
جوارها مباشرة . وغطت الحيرة وجهها كله ، وكان جلبا انها
لمتقنه كلمة واحدة مما قال ، وحال غزعها دون فهمها كل
ما أعقب هذه العبارة من الشرح ، رغم وضوحه الشديد ،
وسيان كان ذلك خطأ المعلم أم خطأ التلميذة . ففى كل يوم
يتكرر هذا المشهد . ونامت عينا الأميرة فلم تستطع أن ترى
أو تسمع شيئاً ، ولم تستطع أن تشعر إلا بوجه أبيها الجاف
الصارم بقربها ، تصدر عنه أنفاسه ورائحته ، ولم تعد تفكر
فى شيء اللهم إلا فى النجاة بأسرع وقت من المكتب لتحاول حل
المسألة على مسجبتها فى حجرتها . وغضب الشيخ ، وبصوت
مرتفع أراح كرسيه ثم قربه مرة أخرى محاولاً السيطرة على
نفسه كيلا ينفجر غضبه . وكان فى كل مرة تقريباً ينفجر
غضبه ويوبخها ويرمى الكتاب بعيداً . واجابت الأميرة أحد
الأسئلة فأخطأت ، فصاح الأمير وهو يدفع الكتاب ويشيح
عنها بحدة :

— ما أعياك !

ولكنه لم يلبث أن نهض قائماً وتمشى فى الحجرة ويده
على شعر الأميرة ، ثم جلس . واقترب من المنضدة وواصل
الشرح . وقال عندما تناولت الكتاب والكراسية وهبت
بمفادرة الحجرة :

— لا فائدة ! الرياضيات مادة عظيمة يا سيدتى . وأنا
لن أسمح أن نكونى على شاكطة آتسانا المألوفات . تفرعى
بالصبر ولسوف تحبينها !

وربت على خدها وأردف :

— لأنها ستجرب اللغو كله من دماغك !

واوشكت أن تنصرف ، فاستوقفها بإيلاء منه وتناول
كتابا لم تفض أوراقه من فوق منضدته العالية وقال لها :

لقد أرسلت إليك صاحبك إليوز هذا الكتاب أيضا
« مفناح التصوف » . كتاب دينى . ولكنى لا انتخل فى عقيدة
أى إنسان . وقد نظرت فيه . فخذبه وانصرقى ! وربت على
كتفها وأقبل بنفسه الباب وراءها .

عادت الأميرة ماريا إلى حجرتها الخاصة وعلى محياها
اكتئاب وفزع قلما فارقاها ، مما جعل وجهها الخسالى من
الوسامة أقل وسامة مما هو ، وجلست إلى مكتبها الذى
تعلموه صور صغيرة وكتب ومخطوطات . نهى على عكس أبيها
فى العدا للترتيب . ووضعت كرامة الهندسة وفتحت
الخطاب بلهفة ، فهو من أعز صديقاتها منذ الطفولة ، الا وهى
جولى كاراجين التى كانت حاضرة فى حفل آل رومستوف .

وكان خطاب جولى بالفرنسية :

« صديقتى العزيزة المتأزاة — الا ما أوجع الفراق
وابشمه ! انا التى أقول لنفسى إن نصف كيانى وسعادتى
يتمثل فيك أنت ، فعلى رغم المسافة التى تفصلنا فقلوبنا

توحد بينها روابط خفية . إلا أن قلبى يترد على قضائه ،
ومهما كانت الذائد والمسليات التى تحيط بى إلا أنى لا أستطيع
أن أقهر حزنا خفيا استشعره فى أعماق نوادى منذ اغترقنا .
فلماذا نحن لسنا معا كما كنا هذا الصيف فى مكتبك الكبير ،
على الأريكة الزرقاء التى شهدت نجوانا ؟ كما لا يسعنى الآن
— كما وسعنى منذ ثلاثة أشهر — أن استمد قوة معنوية من
نظراتك الهادئة اللطيفة ، التى احببتها جدا ويخيل إلى أنى
أراها أمامى وأنا اكتب إليك » .

ولما وصلت الأميرة إلى هذه الفقرة نهبت وانفتحت
تنظر إلى المرأة المعبودة عن يمينها ، فعمكت المرأة قامة
ضعيفة خالية من الرشاقة ووجهها تحيلا . وكانت عينها
الحزينتان دائمتا تنظران فى هذه اللحظة إلى نفسها فى المرأة
وهما تفيضان بياس شديد ، وحدثت نفسها بأن صديقتها
تتملقها ، واشاحت بوجهها وواصلت القراءة . بيد أن جولى
لم تكن تتملق صديقتها ، نعمينا الأميرة الواسعتان المبيتان
المثمتان (ثمينة أشمة من نور دافئ حنون تنبعت أحيانا من
هاتين العينين فى دفقات) جيلتان جدا بالعمل ، حتى أنهما
برغم ظلو وجهها كله من الوسامة تنبعت منهما جاذبية أقوى
أثرا من الجمال . ولكن الأميرة لم ترق تعبير عينها الجليل ،
ذلك التعبير الذى يطل منهما عندما لا تفكر فى نفسها . فهى
كأى إنسان يكتبى وجهها تعبيرا متكفلا قبيحا غير طبيعى متى
نظرت فى المرأة .

وواصلت القراءة :

« لا حديث لموسكو بأسرها إلا عن الحرب . واحد أخو بالخارج ، أما الآخر ففي الحرس القيصري الذي يتأهب للزحف إلى الجبهة . وقد غادر إمبراطورنا العزيز بطرسبرج ويقول الناس إنه عازم على تعريض شخصه العالي لمخاطر الحرب . فانه أسأل أن تكون هزيمة الوحش الكورسيكي الذي يدمر سلام أوربا على يد الملاك الذي شاعت مراحم العلى القدير أن يجعله ملكا علينا . وبصرف النظر عن أخو أجد هذه الحرب قد حرمته من أعز ارتباطاتى القلبية الا وهو الشاب نيقولا رومنوف الذى لم تطغى حماسه الإخلاق للمسكينة فترك الجامعة لينضم إلى الجيش . واعترف لك يا عزيزتى مارى أن رجيله لينحني بالجيش رغم حداثة سنه سبب لى لى شديدا ، فهذا الشاب الذى حدثك عنه فى الصيف فيه الكثير جدا من النبيل ونضارة الشباب . مما يندر أن نصادفه فى زماننا هذا بين من هم أكبر منه وبلغوا سن العشرين . فنيه قبل كل شيء مراحة كبيرة وذكاء غواد . كم هو نقى وشاعرى . لذا كانت معرفتى به على قصر مدتها من أعز الباهج إلى قلبى الذى نغذب كثيرا . وسأخبرك يوما ما عن لقاء الوداع بيننا وما قاله كل منا للآخر عند الفراق . اما الآن فهذا كله لم يزل غشا فى نفسى حتى اننى لا استطيع التعبير عنه . آه يا صديقتى العزيزة ! كم اغبطك لأنك لم تعرفى هذه المرات وهذه الآلام الموجعة للغاية . وانت بعيدة الحظ لأن الآلام عادة هى الاتسوى ! وأنا اعرف تمام المعرفة

أن الكونت نيقولا أحدث منا من أن يفدو لى أكثر من صديق . ولكن هذه الصداقة العذبة وهذه الشاعرية التى تحف بصلتنا الحبيبة قد أشبعت حاجة من حاجات قلبى . والآن حبنا حديثا عن هذا . غالتيا البارز الذى هز كل موسكو هو وفاة الكونت بيزوهوف الشيخ والحديث عن ميراثه . تصورى أن الاميرات الثلاث لم تظفرن بشيء تقريبا . وكذلك الأمير فاسيلى لم يظفر بشيء . وأن كل شيء قد ترك للمسيو بيير الذى تم الاعتراف به ابنا شرعيا فوق هذا كله . وبذلك صار الكونت بيزوهوف صاحب أضخم ثروة فى روسيا . والناس يقولون إن الأمير فاسيلى أساء السلوك جدا فى جميع هذه الأمور وإنه عاد إلى بطرسبرج محبطا أشد الاطباق .

« وأنا اعترف أن إدراكى حد قليل لكل هذه التفاصيل عن الهبات والمنح والوصايا . وكل ما اعرفه أنه ما دام الشاب الذى كنا نعرفه جميعا باسم المسيو بيير لا أكثر . قد صار الكونت بيزوهوف وصاحب ثروة من أكبر الثروات فى روسيا فما أشد اهتمامى بأن لاحظ ما يطرأ من التغير فى اللهجة والسلوك لدى امهات الفتيات اللواتى فى سن الزواج . بل ولدى أولئك السيدات أنفسهن بآراء هذا الشخص الذى اصارحك بأنه بدا لى دائما مخلوقا ناعما . والناس قد تسولوا فى العامين الماضيين بتزويجى من رجال لا أعرفهم . وما هم الآن يجمعون منى فى موسكو الكونتس بيزوهوف . ولكنى واثقة أنك تشعرين أنه لا رغبة لى فى هذا . وبمناسبة الزواج اتعرفين أن العمة الابدية « انا ميهايلوفنا » صرحت لى فى

على الكتمان الشديد أن هناك مشروع زواج لك . وهذا
المريض ليس إلا ابن الأمير فاسيلي « أتقول » الذي يريدون
تزوجهم من غدا غدا وراقبه . وقد وقع اختيار أقرابه عليك .
ولست أدري ماذا سيكون رأيك . ولكني رأيت من واجبي أن
أخبرك سلفا . ويقال إنه وسيم جدا وشديد الجموح . وهذا
كل ما أمكنني أن أعرفه عنه .

« ولكن كنانا ثرثرة . فما لنا اختتم صحيفتي الثانية
وماها تبعث في طلبى كي نذهب وننتشى لدى آل إيركسين .
طالعي كتاب التصوف الذي أمثت به إليك فقد أثار هنا اهتماما
كبيرا . ومع أن في هذا الكتاب أموراً يصعب على أفهامنا
البشرية استيعابها إلا أنه كتاب مرموق نفيس قراءته الروح
وتهدئها وتسو بها . وداعا . احذر أمانى إلى والدك وتحياى
إلى الأنسة بوريين . واعانقك عناق الحب — جولى .

« حاشية : أبلغني أبناء أخيك وعروسه المفره
الفاتنة » .

وفكرت الأميرة ماريا لدقيقة وهي تتنسم حالة (وأضاء
بحباها وشمت عيناها فتفر ماها تعبر سحنها) ثم نهضت
تجاء واتجهت إلى المكتب بخلطى ثقيلة واستخرجت منه ورقة
وبدأت يدها تتحرك فوقها بسرعة . وكتبت الرسالة التالية :
« صديقى العزيزة الممازة — برنى كثيرا خطاباتك
المؤرخ ١٣ الجارى : فانت إذن ما زلت تحبيننى يا جولياى
الشاعرية . والبعاد لم يحدث فيك أثره الممهور . وارك
تسكين عذاب هذا البعاد . وماذا عساي أقول أنا فيه .
وانا المحرومة من كل أعزائى ؟ ولولا تعزية الدين لنا لكأنت

الحياة جد حزينة . وما الذى يحملك على الاعتقاد بأنى اليوك
حين تخبريننى بأعزازك لذلك الشاب ؟ فانا في هذه الأمور
لست قاسية الا على نفسى . فانا أفهم هذه المشاعر لدى
الناس . ولئن لم أحسها قط فاني لا أدبها وإن لم أحبها .
وكل ما هناك أنه يخيل لى أن المحبة المسيحية . محبة الأصدقاء
ومحبة الأعداء . أسمى وأرق وأجل من كل تلك المشاعر التى
يمكن أن نستلهمها شابة شاعرية محبة مثلك من عيني شاب .
أما أبناء وفاة الكونت بيزوهوف فقد بلغتنا قبل وصول خطابك
وقاثر بها والذى جدا . وقال أن الكونت كان الممثل قبل الأخير
للجليل العظيم . وأن الدور قد حل عليه الآن . ولكنه سيبدل
جهده كي يؤخر دوره قدر الإمكان . وأسأل الله أن يجنبنا هذه
الكارثة الرهيبة . ولا يمكننى أن أوافقك على رأيك في بيير الذى
عرفته طفلا . فقد بدالى دائما أنه ذو قلب ممتاز . وهذه هى
الصفة الأجدر بالتقدير عندها يتحلى بها الناس . أما عن
ميراثه وعن مسلك الأمير فاسيلي بصدده . فذلك امر مؤسف
لكليهما . فخلصنا الإلهى يا عزيزتى يقول إن مرور العمل
من ثقب الإبرة أبصر من دخول الغنى ملكوت السماء . وهى
حقيقة مروعة . وانى لأرى للأمير فاسيلي . ولكننى أشد رياء
لبيير . فهو في مقتل الشباب وما هو قد أثقل بالثروة الطائلة
فما أكثر المعربات التى سوف يتعرض لها ! ولو سئلت ما هى
أعظم رغباتى الدنيوية . لقلت أن أكون أفقر من أفقر
المفسولين ! وألف شكر يا عزيزتى للكتاب الذى أرسلته لى
والذى بشر أكبر ضجة في مدينتنا . وما دمت تقولين أنه من
بين محتوياته الحسنة الكثيرة توجد مسائل لا يستطيع عقلنا

البشرى ادراكها . لذا ارى انه غير مجد ان اشفل نفسى
بقراءة كتاب مستعصى على الفهم . لانه سيكون عندئذ
بلا فائدة . . والحق انى لم استطع قط ان افهم لماذا يعنى
بعض الناس انفسهم بدراسة كتب النصوص التى توظف الريب
وتلهب الخيال وتدفعهم إلى مبالغات مضادة للبساطة
المسيحية . فلنقرأ اعمال الرسل والاناجيل . ولننتفع من
التفغل إلى غوامض الاسرار المكونة فيها . إذ كيف يجوز لنا
نحن الخطاة ان نضبو إلى استكناذ اسرار العناية الالهية ونحن
اسرى هذا الجسد الذى يقف حائلا بيننا وبين ما هو ابدى ؟
ان الاولى بنا ان تقتصر على دراسة تلك المبادئ السامية
التي خلفها لنا مخلصنا الالهى لتكون مرشدا في سلوكنا
ما هنا . ولنجتهد في تحريرها والافتداء بها . ولننفع انفسنا انما
كلها قل ارتكاننا على إدراكنا البشرى الضعيف كان ذلك احرى
برضا الله الذى يرفض كل معرفة لم تصدر منه هو . وانه كلما
نجينا الغوص فيها شابت إرادته ان تخفيه عن مداركتنا .
كان سبحانه اسرع إلى الكشف لنا عنه بروحه القدس .

« والذى لم يقانحنى في امر هذا الخاطب . ولكنه قال
لى فقط انه تلقى رسالة من الأمير فاسيلى وانه يتوقع حضوره
لزيارته . واما بخصوص مشروع الزواج الخاص سى . فانى
اقول لك يا صديقتى العزيزة ان الزواج في رأى نظام قدسى
لا بد لنا من الخضوع له . وبهما كان الأمر مؤلما لى . فانى
ان شاء العلى القدير ان يفرض على واجبات الزوجة والام .
غصوف احاول النهوض بها باقصى ما استطيع من الاخلاص .

من غير ان اعنى نفسى بتفحص مشاعرى تجساه من أراد الله
ان يكون زوجا لى .

« تلقيت خطبا من أخى بطلن فيه عن قدومه إلى بليك
هيلز ومعه زوجته . وستكون سعادتنا بهما قصيرة الامد .
لانه سيفارقنا سريعا ليلحق بهذه الحرب النعسة التى جرونا
إليها . والله اعلم كيف حدث هذا ولماذا ؟ وليس الحديث العام
عن الحرب سائدا عندكم فقط حيث الاعمال وبؤرة المجتمع .
بل هنا ايضا في اوساط الفلاحين والقرويين حيث هدو
الطبيعة الذى يقضيه دائما سكان المدن . نتردد إشاعات
الحرب ويشعر الناس بالامها . وليس لآبى حديث إلا عن
الزخوف . والزخوف المضادة . وهى أمور لا نفع فيها شيئا .
وامس الاول كنت انتهى في شارع القرية مشهدت منظرا
يعتصر القلب . . منظر قافلة من المجندين الذين حشدوهم من
منطقتنا . وجار ارسالهم إلى الجيش . ولبتك رايث حالة
الامهات والزوجات واطفال هؤلاء المجندين . وسبعت
اصوات التحبب الصادرة من الجانبين . فكانها نسيت
الإنسانية قوانين ناديبها المقدس الذى بشر بالحبة وغفران
الاساءات . فادا الناس الآن يجملون من قتل بعضهم بعضا
اعظم آيات المياهاة .

« وداعا يا صديقتى الطيبة . ولتشمك رعاية نادينا
وامه القديسة - ماري . »

وقالت الأنسة بوريين بصوتها المذب الفرنسي اللكنة :

— اراك تهين بارسال خطاباتك . وقد فرغت ايضا

من رسالتى إلى أمى المسكينة . وادخلت متهلة إلى عالم
الأميرة ماريا السوداوى الواجم جوا من الخفة والفرق والرضا
عن الذات . وارتفعت بصوت خافت . وكأنها تستمتع بعذوبة
جرمنه :

— يجب على يا أميرة أن أنبهك إلى أن الأمير احتد في
مصادة مع ميهايل ايفانوف . وقد انحرف مزاجه جدا واشتد
نكده . فاعدى نفسك لذلك .

فاجابتها الأميرة ماريا :

— لقد رجوتك مرارا يا عزيزتى الا تخبرينى سلفا بمزاج
ابى . فانا لا اسمح لنفسى أن انتتده ولا اسمح لغيرى بهذا
ايضا .

ونظرت الأميرة إلى ساعتها وإذا بها قد تأخرت خمس
دقائق عن الموعد المحدد لتدريباتها على البيانو العتيق الطراز .
فتوجهت مناعسة إلى قاعة الأرائك . فبمقتضى خريطتها
اليومية كسان الأمير يستريح ما بين الثانية عشرة
والثانية بينها الأميرة تتدرب على هذه الآلة .

— ٢٣ —

كان الخادم الاثيب الشعر جالسا في قاعة الانتظار
مغفيا ومصفيا في الوقت نفسه لفطيط الأمير في مكتبه الواسع .
ومن أقاصى الدار كانت تزد من خلال الأبواب المغلقة اصوات
نقرات صعبة من إحدى السوناتات «الداسك» وهى تتكرر
عشرين مرة تباعا .

وفي تلك اللحظة وقعت أمام الدرج عربة كبيرة وأخرى
صغيرة . ونزل الأمير أندريه من العربة الكبيرة وأعان زوجته
الصغيرة على النزول منها وتركها تدلف إلى الدار قبله . وظهر
تيهون الاثيب إلى باب قاعة الانتظار وقال له همسا إن الأمير
نائم . وأسرع باغلاق الباب . فقد كان تيهون يعلم أنه ما من
حدث خارق للعادة — حتى ولو كان وصول ابنه — يمكن أن
يماح له اقتحام الروتين اليوسى . وكان الأمير أندريه عليها
هذه الحقيقة علم تيهون بها . فنظر إلى ساعته كأنها ليتأكد من
أن عادات ابنه لم تتغير أثناء غيابه عنه ، وأطمأن إلى أنها
لم تنزل على عهده بها . فالتفت إلى زوجته قائلا :

— سيصحو بعد عشرين دقيقة . لنذهب الآن إلى ماري .

وكانت الأميرة الصغيرة قد سمعت قليلا في هذه الفترة ،
ولكن شفقتها العليا القصيرة التى يغطيها شارب خفيف جدا
ارتفعت في مرج وغفلة كالعادة عندما تكلمت . قائلة لزوجها :

— وى ! انه لقصر حقيقى ! عيا بنا ! اسرع !

وهى تنظر حولها بنفس التعبيرات التى يزجى بها
الناس النهائي إلى رب الدار في حفل راقص . ونظرت وهى
تلتفت حولها باسمه إلى تيهون وإلى زوجها ، وإلى الخادم
الذى تقدميها .

— أهذه ماري التى تتدرب ؟ اسرع بنا إليها ، كي
نفاجتها !

وتبعها الأمير أندريه في دليانة وإماتال . وقال عند
مروره بالخادم الشيخ الذي قبل يده :

— لقد شخت ياتيهون ..

وقبل أن يلبغا القاعة التي تنبعث منها الأصوات برزت
المرأة الفرنسية الجميلة الشقراء الشعر من باب جانبي .
وبدت الأنسة بورين مستطارة اللب من السرور وصاحت :

— يا لها من مفاجأة مسارة للأميرة . أخيرا ! لا بد أن
أخبرها ..

فالتت الأميرة الصغيرة وهي تقفها :

— كلا ! أرجوك الا تفعلنى .. انت الأنسة بورين .
إننى أعرفك سلفا وأعرف صداقة شقيقة زوجى لك . إنها
لا تتوقع قدومنا !

وانجهوا جميعا إلى باب قاعة الارائك الى مصدر عنها
نغمات نفس الفقرة المتكررة مرارا . ووقف الأمير أندريه ثامنا
في مكانه ومقطبا كأنه يتوقع شيئا غير يسار . ودخلت الأميرة
الصغيرة . فتوقفت انغام الفقرة المعزوفة في منتصفها ،
وسمع صيحة دهشة . ثم وقع خطوات الأميرة ماريا وصوت
قبلات . ولما دخل الأمير أندريه إلى السيدتين متعانتين وكل
منهما تنكب بشفتيها في حرارة على أول موضع تصادفه من وجه
الأخرى . لم تكونا قد تقابلتا من قبل الا برهة قصيرة في حفل
زفاف الأمير أندريه . وكانت الأنسة بورين واقفة بقرمها .
ضاغطة بيديها على قلبها مبتسمة في ولاء وعلى أهبة البكاء



ولما دخل الأمير أندريه إلى السيدتين متعانتين وكل منهما تنكب بشفتيها
ل حرارة على أول موضع تصادفه من وجه الأخرى ..

والضحك . فبهز الأمير اندريه ككفيه ونجهم كما يتجهم محبو الموسيقى عند سماع نغمة نشاز . وأخيرا اغلقت كل منهما الأخرى . بيد انهما لم تلبثا أن تعانقتا من جديد كأنهما تخشيان التقصير ، وراحت كل منهما تقبل يد الأخرى التي تحاول جذب يدها ، ثم انصرفتا إلى تقبيل الوجوه . ثم ادهشتا الأمير اندريه بأن انفجرت كفتاهما بمتجبة وهما تعاودان القبلات . وبكت الأنسة بوريس أيضا . وبدا الحرج الواضح على الأمير اندريه ، أما المراتان فكان واضحا أن البكاء في نظرها أمر طبيعي جدا . وما كان ليخطر لهما ببال أبدا أن يتم لقاؤهما بغير دموع .

وشرعت السيدتان تقولان في نفس واحد وهما تضحكان :
— آه يا عزيزتي ! .. آه يا عزيزتي ! لقد رايت حلما ليلة أمس . إذس فأنت لم تتوقعي حضورنا ؟ آوه يا ماري ! لقد نحفت بعض الشيء .

— وانت تبدين في صحة احسن .

وقالت الأنسة بوريس :

— لقد عرفت الأميرة على الفور .

وصاحت الأميرة ماري :

— كان ذهني خاليا تماما . آه يا اندريه ، انى لم ارك .

وقبل كل من الأمير اندريه وأخته يدى الآخر وقال لهما :
انها لم تزل طفلة بكاءة كالعهد بها دائما . والتفتت الأميرة ماري إلى أخيها . ومن خلال دموعها استقرت نظرات عينيها

الواسعتين اللتين اكتسبتا جمالا في هذه اللحظة على وجه الأمير اندريه بكل الحب والحنان . أما الأميرة الصغيرة فلم تكف عن الكلام وشفتها العليا القصيرة ذات الزغب الخفيف تواصل الارتفاع والهبوط لتلتقى بشفتها السفلى الوردية عند الاقتضاء . لكن ترتفع عنها مرة أخرى في ابتسامة تتلالا بها عيناها وأسنانها . وروث حادثا وقع لهما على تل سباسكو . وكان من الممكن أن يضر بها في « حالتها الراهنة » . وبعد ذلك مباشرة قالت انها تركت كل ثيابها في بطرسبرج ، والله أعلم ماذا يمكن أن ترثدى عا هنا ، وأن اندريه تغير كثيرا ، وأن كبرى أودينسوف تزوجت رجلا مسنا . وأنه قد ظهر خاطيب للأميرة ماري وأنه « خاطب ذو شأن » ولكنهما ستتحدثان عن هذا الأمر فيما بعد . وكانت الأميرة ماري لم تزل تنظر وهي صابئة إلى أخيها . وعيناها الصيلتان نقيضان حيا واسى . وكان جليا أن افكارها ماضية في واد آخر بعيدا عن ثروة زوجة أخيها . وفي منتصف سرد زوجة أخيها لآخبار آخر حفلات بطرسبرج . قالت لأخيها :

— أذهاب أنت حقا إلى الحرب يا اندريه ؟

وتنهدت . وكذلك تنهدت ليزا . وأجابها أخوها :

— أجل . وغدا بالذات .

— انه يهجرنى هنا والله أعلم لماذا ، مع انه من الممكن أن يحظى بترقية .

ولم تصغ الأميرة ماري إلى النهاية . بل تابعت تيار افكارها . والتفتت إلى زوجة أخيها واستقرت عيناها على خصرتها ، وسألتها :

— أهذا صحيح فعلا ؟

متغير وجه زوجة اخيها وتنهت وقالت :

— اجل - هو صحيح . وكم هو مروع !

وتهاوت شفة ليزا العليا والصقت وجهها بوجه اخت زوجها وشرعت تبكي على غير انتظار ، فقبال الأمير انفرجه مقبلا :

— انها بحاجة إلى الراحة . اليس كذلك يا ليزا .
خفيها إلى حجرتها ريثما اذهب انا للقاء ابي . وكيف حاله الآن . . هل هي نفس الحال ؟

فأجابته الاميرة ماريا بحبور :

— كما هو دائما . ولست ادري ماذا سيكون رايك .

فسال الأمير أندريه بابنسامة لا تكاد تلوح على وجهه .
بما يدل على انه بالرغم من حبه لأبيه واحترامه اياه مدرك
لواطن ضعفه : « اهي نفس المواعيد؟ ونفس المسيرة في مهابتي
البستان » والعمل على المخرطة » .

فأجابته الاميرة ماريا بهرح :

— نفس المواعيد ، والعمل على المخرطة ، ودراسة
الرياضيات ايضا ، والدروس التي يلتقن اياها في الهندسة .
وكان هذه الدروس من ابهج أحداث حياتها .

ولما انقضت العثرون دقيقة وحان وقت استيقاظ
الأمير الشيخ ، جاء تيهون ليدعو الشاب للقاء ابيه . وتكرما
لوصول ولده عاد الشيخ عن روتينه المعتاد . وأمر بادخاله
إليه في جناحه الخاص أثناء ارتدائه ثيابه قبل الغداء وكان من
عادة الأمير الشيخ ان يرتدى زيا من الطراز العتيق ، فيلبس
القطنان والشعر المستعار المغطى بالبودرة . ولما دخل الأمير
أندريه — لا بالوجه المتعالي المعتاد . بل بالوجه المظلم
الذي تحدث به مع بيير — إلى حجره ابيه ، كان الشيخ في
حجرة ثيابه جالسا في كرسي رحب وعليه ثوب فضفاض .
ورأسه بين يدي تيهون . وقال الشيخ وهو بهز رأسه المغطى
بالبودرة بقدر ما سمحت له بذلك الصغيرة المجدولة في مؤخرة
رأسه :

— آه ! ها هو المقاتل ! أنت إذن تريد مقاتلة بونايرت ؟
. . كن منه على حذر على كل حال . وإلا سرعان ما يضيفنا
إلى قائمة رعاياه ! كيف حالك ؟

ومد وجنتيه نحو ابنته . وكان الشيخ في أحسن حال
مزاجية بعد غفوته القصيرة قبل العشاء (وكان من عادته ان
يقول إن النوم إذا كان بعد الغداء من فضة فهو قتل الغداء من
ذهب !) وراح يرمق ابنه من تحت حاجبيه الكتين المنهذلين
بنظرات حبور جانبية . وتقدم الأمير أندريه ولثم اياه في
الموضع الذي حدد له ، ولم يرد على كلام ابيه عن موضوعه
الاثير ، وذلك المزاج الفكه على حساب عسكري تلك الحقبة
من الزمن ، ولا سيما بونايرت . وقال الأمير أندريه وهو

يرتقب كل حركة من حركات وجه أبيه بعينين متلهفتين تفيضان بالتوقير :

— لقد جنّك يا أبى ومعى زوجة حامل . كيف صحتك

أنت ؟

— لا تفعل إلا صحة الحمقى والمنهكين يا ولدى . وانت نعرفنى مشغولا من الصباح إلى الليل . ملتزما الاعتدال ، ولذا فأنا على ما يرام طيبا .

فقال ابنه باسما :

— الحمد لله !

فاستطرد الأب عائدا إلى هوايته الأثيرة :

— ليس لله كبير دخل في هذا الموضوع . والآن خبرنى كيف دربك الألمان على قتال بونابرت بأسلوبهم العلمى الجديد ، الاستراتيجى كما يسمونه ؟

فابتسم الأمير اندريه وقال بغيرة تدل على أن تقاطع ضعف أبيه لم تحل دون احترامه له وحبه إياه :

— أتح لى مساحة من الوقت للتقاطع أنفاسى يا أبى . نانا قد وصلت لتوى !

فصاح الشيخ وهو يهز ضغيفته الخلفية ليثبت أنها مجدولة بأحكام ، وتناول يد ابنه :

— هراء هراء ! البيت متأهب لحلول زوجتك به . ومتعنى بها مارى وثريها كل شئ ونثرثر معها الصاع صاعين . فهذا هو أسلوبهما الآنوى . وائى لمعيد بقدمها . اجلس

وحدثنى . أن جيش ميكلسون كما سمعت وجيش تولستوى أيضا يتومان بالحيلة في آن واحد . . هذا كله اعرفه . ولكن ماذا عن النمسا ؟

ونهى عن كرسبه ونمشى في الحجرة وتبهون يجرى خلفه ويقدم له أدوات مغنوعة للزينة ، واستطرد الشيخ !

— وماذا عن السويد ؟ كيف سيعبرون بوميرانيا ؟

ولما رأى الأمير تلف أسئلة أبيه شرع بشرح خطة العمليات للحيلة المتتواة . وكان في البداية يتكلم على مضض . ولكن اهتمامه ازداد مع مضيه في الكلام . وبحكم العادة تحول من الكلام بالروسية إلى الكلام بالفرنسية . وأخبره كيف أن جيشا من تسعين ألفا سوف يهدد بروسيا كى يفرجها من حيادها ويزج بها في الحرب ، وكيف أن جانبيا من هذه القوات سينضم إلى القوات السويدية في سترالسوند . وكيف أن مائتين وعشرين ألف نمسوى سينضمون إلى مائة ألف روسى في إيطاليا وعلى نهر الراين ، وكيف أن خمسين ألف روسى وخمسين ألف جندى إنجليزى سيقابلون في نابولى ، وكيف أن هذا الجيش المكون من مائة ألف سيهاجم الفرنسيين على جبهات مختلفة في آن واحد . ولم يبد الأمير الشيخ أدنى اهتمام بما قاله له . وواصل ارتداء ثيابه وهو يتمشى . متظاهرا بعدم الاصغاء ، وقاطعه ثلاث مرات على غير انتظار . فاستوقفه مرة صائحا :

— الأبيض ! الأبيض !

وكان معنى هذا أن تيهون لم يقدم له الصادر الذي يريده .
وفي المرة الثانية وقف ثابتا وسأله :

— وهل ستضع وليدها قريبا ؟ ..

وهز راسه مؤنسا وقال :

— هذا سيء ! استمر . استمر !

وكانت المرة الثالثة عندها أوشك الأمير أندريه على الانتهاء
من سرده ، فغمغم الشيخ بالفرنسية بصوته الشائخ المرتفع
الطبعة :

— «بابروك» ذاهب إلى القتال . والله أعلم متى يعود ..

واكتفى ابنه بالابتسام وقال لابيه :

— لست أزعجكم ان هذه الخطة ترويض ، كل ما هناك اني
كنت أقول لك ما هي هذه الخطة . ولابد ان نابليون أعد الآن
خطة تضاهيها .

— لا أراك رويت لى نبأ جديدا على ذهني .

وسرعان ما استسلم الشيخ للتفكير ثم عاد يغمغم لنفسه
بسرعة :

— الله أعلم متى يعود ! اذهب الآن إلى قاعة المائدة .

- ٢٤ -

وفي الموعد المحدد بالضبط سار الأمير حليقا ومترينا بالمساحيق
إلى قاعة المائدة حيث كانت في انتظاره زوجة ابنه والأميرة
ماريا والأنسة بوريين ، ومعماري الأمير الذي كان يتفدى على
مائدة الأمير بناء على نزوة غريبة منه ، مع أنه شخص ناه
ليست له قيمة اجتماعية ، ولذا لم يكن يتوقع بالطبع ان ينال
هذا الشرف . وكان الأمير في العادة متشددا في التزام غروق
المقام ، ولذا قلما دعا إلى مائدته كبار الموظفين المحليين ولكنه
سمح بذلك لمعماريه ميهايل ايفانوفتش ليتبث لابنسه نظريته
القائلة ان جميع البشر متساوون ، وقال لابنه أكثر من مرة
ان ميهايل ايفانوفتش ند له ولها ، وكان الأمير يوجه الحديث
على المائدة إلى المعماري الصموت أكثر مما يوجهه لاي شخص
آخر .

وفي قاعة المائدة العالية جدا شان سائر حجرات الدار ،
كان دخول الأمير ليجد جميع اعضاء بيته وكل خدمه وقوما
خلف كل مقعد . وكان السائق وعلى ذراعه فوطنة من فوط
المائدة يتنحصر ترتيب المائدة ، مصدرا الإيماءات إلى الخدم ،
وهو يتلفت باستمرار مرجعا الطرف بين ساعة الحائط والباب
الذي سيدخل منه الأمير . وكان الأمير أندريه واقفا عند إطار
مذهب هائل معلق على الحائط كان جديدا بالنسبة له . ويضم
هذا الإطار شجرة عائلة آل بولكونسكي ، وفي قبالبته إطار في
مثل حجمه يضم رسما سيء التلوين (لابد أنه من عمل أحد
اعضاء البيت) يمثل أميرا متوجا ، والفروض أنه لسيل «روريك»

ومؤسس عائلة الأمراء بولكونسكى . ونظر الأمير أندريه إلى شجرة العائلة هذه وهر رأسه وضحك . وقال للأميرة ماريا التى دنت منه :

— هذا هو أبى بعينه !

فنظرت الأميرة ماريا إلى أخيها بدهشة ولم تدرك لم كان يتقسم ، فكل ما كان يصنعه والدها كان يوحى إليها أجلا لا يسمح بالنقد . واستطرد الأمير أندريه :

— لكل واحد منا نقطة ضعفه . فبرغم ذهنه الكبير يهبط إلى مثل هذه التناقضات !

ولم تستطع الأميرة ماريا ان تفهم جراءة نقد أخيها وثابتت للاحتجاج عندها سمعت الخطوات التى كانوا جميعا ينتظرونها وهو قادم من المكتب . ودخل الأمير بخطى سريعة نشطة كالعهد به دائما ، وكأنه يبرز عبدا الفارق بين مرونة حركاته وتصلب روئين بيته . وفى هذه اللحظة دقت الساعة الكبيرة الثانية ، ورددت صداها ساعة أخرى فى قاعة الاستقبال ولكن بنبرات أرفع . ووقف الأمير ثابتا ، وعيناه اللتاقيشان تلحمان تحت حاجبيه الكثين المتهدلين . يتتخص بهما الجماعة كلها ، إلى ان استقرت نظراته على الأميرة الصغيرة ، التى شعرت فى هذه اللحظة بما يحس به أهل البلاط عند دخول القيصر ، وهو شعور بالرهبة والإجلال كان هذا الشيخ يوحى لكل من حوله . وربت على رأس الأميرة الصغيرة ، ثم ربت بحركة مرتبكة على عنقها . وقال وهو يثبت نظراته فى عينيها :

— انى لسعيد لمراك !

ومشى إلى كرسيه وجلس فيه وهو يقول :

— جلوس ! اجلس يا ميهايل ابغاثوفتش . اجلس !

واشار لزوجته ابنه إلى كرسي بجواره ، فحركه الخادم كى تجلس عليه . وقال الشيخ وهو ينظر إلى قولها الذى استدار :

— هوه . هوه ! انكما لم تضيعا الوقت سدى ! هذا سيء !

واطلق ضحكة جافة باردة غير مستسافة . ضاحكا كعائته بشغفه لا بعينه ، وادف :

— يجب ان تمشى أكثر ما يمكن !

ولم تسمع الأميرة الصغيرة او لعلها لم تهتم بسماعه ، بل جلست بكاء وقد بدا عليها الارتباك . وسالها الأمير عن أبيها ، فآخذت تتكلم وتبتسم . وسالها عن معارف مشتركين ، فازدادت حبوية الأميرة وانطلقت تتكلم ببلغة الأمير تحيات أناس مختلئين ومغضبة بما تلفظ به المدينة . ثم قالت وقد اشتدت حيويتها :

— الكونتس ابراكسين فقدت زوجها . لشد ما بكت عليه المسكينة !

ولما بلغت حيويتها الغاية ، نظر إليها الأمير بمزيد من الحدة . وعلى حين غرة ، كأنها قد حدسها بما فيه الكفاية وكون فكرة كائنية عنها . اشاح عنها وقال للمعماري :

— اسمع يا ميهايل ايفانوفتش ! ان صديقا بونابرت سيواجه اياما عصيبة . فالامير اندريه (فهكذا يتحدث دائما عن ابنه) اخبرني عن القوات التي يجري حشددها ضده ! مع اننا انا وانت كنا دائما نراه شخصا ثائفا !

وتحير ميهايل ايفانوفتش في تذكر اى وقت تبادل فيه اى حديث عن بونابرت . ولكنه ادرك انه استخدمه ذريعة للدخول في موضوعه الاثير ، فنظر بنعجب إلى الأمير الشاب وهو لا يدري ماذا سيقل بعد ذلك . وقال الأمير لابنه :

— انه تكبى عظيم .

واشار باصبعه إلى الممارى ، ثم دار الحديث مرة أخرى عن الحرب وعن بونابرت وعن جنرالات هذا الزمان وبأسفه . ويبدو ان الأمير الشيخ كان مقتنعا بأن جميع الرجال العموميين في هذا العهد اطفال وليست لديهم اى فكرة عن ابجديات الشؤون العسكرية والسياسية . اما بونابرت — في رايه — ففرنسى ثائفا صادفه النجاح لانه لم يجد رجالا من امثال بتيومكين وسوفاروف يتصدون له . بل وكان يعتقد انه لا مشكلات في اوربا وانه لا حرب هناك فعلا ، بل مجرد عرض للدمى في مسرح المرائس ، يتقاسم فيه اولئك الرجال المهازيل الانوار مدعين انهم يمارسون الواقع . وتقبل الأمير اندريه هزه ابيه بالمعاصرين المحدثين في مرجح . وراح يستدرج اياه للكلام في استمتاع واضح ويصفى لما يقول ثم قال :

— ابيدو كل ما صنع في الماضي حسنا ؟ ألم يسلط سوفوروف نفسه في الفخ الذي نصبه له مورو ، ولم يستطع ان يخرج منه ؟

نصاح الأمير :

— من قال لك هذا ؟ من قال هذا ! سوفوروف ؟ !

ورمى بطبقه الذى النقطة تيهون ببراعة واستطرد الأمير :

— سوفوروف ؟ فكر مرة ثانية يا أمير اندريه . فقد كان هناك رجلان : فردريش وسوفوروف . . . مورو ! كان من المفروض ان يقع مورو اسيرا لو ان يد سوفوروف كانت طليقة . ولكن يديه كانتا مفلولتين ، وكان الشيطان نفسه خليقا ان يكون في مازق لهذا السبب . وستكتشف انت معدن هؤلاء الالمان ! ولم يكن بوسع سوفوروف ان يتغلب عليهم ، فكيف عسى ان يفعل ميهايل كونوزوف ؟ كلا يا عزيزي ! ولذا لن تتمكن انت وجنرالائك من التغلب على بونابرت ! بل لابد لكم من استدعاء فرنسيين لذلك الغرض — كلف لصا بالقبض على لمر ! وها هو الالمانى باهلت قد بعنوا به إلى نيويورك في امريكا لاحضار مورو !

مشيرا بذلك إلى الدعوة التي وجهت تلك المسنة إلى مورو كي يدخل في خدمة الجيش الروسى ، وادف :

— مسألة غريبة ! . . ترى اكان امشال بتيومكين وسوفوروف واورلوف من الالمان ؟ كلا يا ولدى ! اما ان تكونوا جميعا قد فقدتم صوابكم او اكون انا قد عمرت حتى خرفت . يعون الله سنرى بونابرت يفتد قائدا عسكريا كبيرا ! احم !

فقال الأمير اندريه :

— لست اقول اطلاقا ان تلك الخطط جهدة . وكل

ما هناك انى لا انهم كيف يمكن ان يكون لك مثل هذا الراى فى بونايرت . لك ان تضحك . ولكن بونايرت على كل حال جنرال عظيم !

فصاح الامير بالمعمارى الذى كان مستغرقا فى تناول اللحم المشوى وهو يرجو ان يكونا قد نسياه :

— ميهائل ايفانوفتشى ! ألم اقل لك ان بونايرت تكتبكى عظيم ؟ ها هو ايضا يقول هذا .

— بقتينا يا صاحب السعادة !

وارسل الامير الشيخ مرة اخرى ضحكته الجافة ثم قال :

— لقد ولد بونايرت فى فيه طمعة من الفضة . فلدبه جنود ممتازون . وقد بدأ ايضا بهاجبة الالمان . وفى وسع اى احق ان يهزم الالمان . اما هم فلم يهزموا احدا قط . فالجميع منذ بداية العالم قهرروا الالمان . ولم يقهرروا هم احدا ، وقصاراهم ان يهزموا بعضهم بعضا . ولذا فقد نال شهرته بمحاربتهم .

وشرع الامير يحلل كل الاخطاء الجسيمة التى ارتكبتها بونايرت فى رايه سواء فى الحشروب او فى السياسة . ولم يعترض ابنه ، ولكن كان من الواضح انه مهما كانت الحجج التى تلتذد آراءه فهو مثل ابيه الشيخ نفسه فى عدم الاستعداد للتخلى عن رايه . ولم يسمه الا التعجب من ان هذا الشيخ الذى يعيش منذ سنوات طويلة وحده ولم يفتاد اثناءها الريف قط ، استطاع ان يعرف كل أحداث أوروبا المكسرية

والسياسية فى السنوات القليلة الماضية يمثل هذا التفصيل وبكل هذه الدقة ، ويكون عنها حكما واضحا . واستطرد الاب :

— انت تظننى شيئا ولا افقه الاوضاع الراهنة للأمور ! ولكنى اؤكد لك انى مشغول البال بها حتى انى لا انام الليل . والان قل لى ابن اثبت جنرالك العظيم ذاك انه فعلا كذلك ؟ فاجابه ابنه :

— هذه حكاية طويلة .

فصاح بفرنسية مبتذلة :

— اذهب انت الى بونايرت . وهامى الانسة بوربين معجبة ايضا بالمبراطورك الوجد !

— انت تعلم انى لست بونايرتية يا امير . .

فهمهم الامير بصوته المشروح :

— الله وحده يعلم متى بمود .

وضحك بصوت متناثر ايضا ونهض عن المائدة .

وكانت الاميرة قد جلست صابئة اثناء هذه المناقشة بانسرها وما تبقى من وقت الفداء ، وهى تنظر برعب إلى الاميرة ماريا ثم إلى حبيبها . ولما نهضوا عن المائدة ، تناولت نراع اخذ زوجها وجذبتها إلى حجرة اخرى وقالت :

— ما أشد فكاك والدك وبراعته ! ولعل هذا هو سبب خوفي منه .

فقال الاميرة ماريا :

— اوه ! انه رقيق جدا !

- ٢٥ -

وكان الأمير أندريه من المفروض أن يسافر في المساء التالي . ولكن الأمير الشيخ لم يخرج على روتينه المعتاد ، نذهب إلى حجرته الخاصة بعد الغداء ، وكانت الأميرة الصغيرة مع أخت زوجها . وأبدل الأمير أندريه ثيابه وأرتدى معطف سقر بدون قصب على الكتفين ، وشرع بعد دقائق مع خادمه الخاص في الحجرات التي خصصت له . وبعد أن انقضى بنفسه العربة الكبيرة وحملت حقائبه عليها ، أمر بشد الخيول إليها . ولم تبق في الحجرة إلا الأشياء التي كان الأمير أندريه يحملها دائما معه ، وهي حقيبة سفر ، وخزانة نبيذ فضية وغدارتان تركيتان وحسام . وهو هدية من والده عاده من حيلة حصار أوشتاكوف . وكانت كل متعلقات الأمير أندريه للرحلة على أتم نظام وترتيب . فكل شيء كان جديدا ونظيفا وداخل أغنية من القماش . ومربوطة كلها مسيور بكل عناية .

وفي لحظات الانطلاق وابتداء حبساة جديدة . يميل ذوو الجيول إلى التفكير في أمعالمهم إلى أخذ الأمور بحذية . وفي مثل هذه اللحظات يستعرض المرء الماضي ويرسم خططا للمستقبل . ولقد كان وجه الأمير أندريه حالما جدا وحنونا للغاية ، فشبك بديه وراءه وراح يتشكى جيلة وذعابا بسرعة من ركن الحجرة إلى ركنها الآخر . وسواء أكان يشعر بالرؤع لضربه إلى الحرب ، أو الحزن لفراق امرأته ، أو لعل شعوره كان مزيجا من هذين الأمرين معا ، فهو على كل حال لم يكن حريصا على

أن يشاهده أحد في هذا الحال ، ولذا فانه ما أن سمع وقع خطوات في الحجرة الخارجية حتى سارع بفك يديه والوقوف عند المنضدة ، وكأنه منهمك في إحكام غطاء الخزانة . واستعاد المعتاد من هدوئه وسحقته التي لا تنم على شيء . وكانت الخطوات خطوات الأميرة ماريا التي قالت له لاهثة (ولا شك انها كانت تجرى) :

— قيل لى أنك امرت بشد الجياد إلى المركبة ، وبى رغبة شديدة في مزيد من الحديث معك على انفراد . فانه أعلم كم ستفترق هذه المرة . لعلك لست غاضبا لحضوري إليك الآن ؟ لقد تغيرت كثيرا يا أندريوشا .

وكانها بهذه العبارة الأخيرة توضح الأمر له . وابتسمت وهي تدلله قائلة يا أندريوشا . فقد كان غريبا في نظرها ان ترى في هذا الرجل الموسيم الجاد نفس ذلك الفلام النحيف . العفريت الذى كان رقيق طفولتها . وسالها وهو يرد عليها بانتماسة :

— واين ليذا ؟

فقالت وهي تجلس على الأريكة في مواجهة أخوها : — كانت متعبة جدا غنايت على الأريكة في حجرني انها طفلة كاملة من كل وجه ، لطيفة ومرحة . لكم أحبها . ولم يقل الأمير أندريه شيئا ولكن الأميرة لاحظت تعبير محباه الساخر المزدري .

— ولكذك ينبغي ان تتسامح في نقاط الضعف الصغيرة . فمن ذا الذى يخلو منها يا أندريه ؟ ولا تنسى انها نشأت وتربيت

في المجتمع الراقى - ثم ان وضعها ليس مبهجا للغاية . وعلى المرء ان يضع نفسه في مكان الآخرين . ومن فهم كل شيء غير كل شيء . وتصور ماذا يعنى لها - هذه الصبية المسكينة - ان تفرق عن زوجها وتترك وحدها في الريف وفي مثل حالتها الخاصة ايضا بعد الحياة الاجتماعية التي تعودتها . ما اشق هذا عليها .

فابتسم الأمير أندريه ونظر إلى اخيه بمنسما ابتسامة من يرى سريرتها . وقال :

— اتعيشين انت في الريف وترين هذه الحياة مروعة ؟
— بالنسبة لى الأمر مختلف . فلماذا تتحبنى في الموضوع ؟
انا لا رغبة لى في نوع آخر من الحياة . ولكن يا أندريه ماذا يعنى لشاية تعودت المجتمع الراقى ان تدفن طوال أفضل سنوات عمرها في الريف وحدها . لان أباهما مشغول دائما . . وأنا . . كما تعرفنى . لست رفيقة بمرحة لنساء تعودن الحياة في أرقى مجتمع . ان الأمسة بوريين هى الوحيدة . .

فقال الأمير أندريه :

— انا لا احب بوريين هذه على الإطلاق !

— لا ! لا ! انها فتاة جد طيبة وظريفة . وهى فضلا عن هذا حديرة بالراء . فليس لها اى أحد في الدنيا . والحقيقة انه لا حاجة لى بها ، فأنا كما تعلم كنت دائما مخلوقة مبالاة للوحدة ، وأنا ازاد الآن ميلا لذلك . واحب ان انفرد بنفسى . . وأبى يحب بوريين كثيرا . فهى وبمهايل ايفانوفتشى الوحيدان اللذان يلفهما ويمتدنان معهما مزاجه ، لانه ولى نعمة كل منهما . وعلى حد

قول ستيرن « نحن لا نحب الناس لما اسدوه لنا من جميل بل لما اسديناه نحن لهم ! » وقد التقطها أبى بتيمة نهيم في الطرقات وهى طيبة القلب جدا وأبى يحب طريقتها في القراءة . فهى تقرأ بصوت عال كل اسبعية ، وقراءتها جيدة جدا .
ونجاة سالها الأمير أندريه :

— قولى لى الحقيقة يا مارى . احسبك نعمتين وتعذبين كثيرا . من حدة طبع والنا أحيانا ؟
وفي البداية دهشت الأميرة ماريا . ثم أخذت بالسؤال وقالت :

— انا ؟ .. انا ؟ .. انا اعانى !

فقال الأمير أندريه متحدثا عن أبيه باستخفاف وهو يرمى بلا شك إما إلى إرباك أخته أو اختبارها :

— لقد كان خشنا على القوام . . ولكنه صار الآن مضجرا جدا فيما اعتقد .

فقال الأميرة سادرة في تفكيرها أكثر منها متتبعية لسياق الحديث :

— انت طيب من جميع الوجوه يا أندريه ولكنك معند بذهنك وتفكيرك . وهذا إثم كبير . انتظن من الصواب ان تحاكم أبك ؟ ولئن جاز هذا فإى شيء سوى الإجلال يمكن ان يوحى به رجل من طراز أبى ؟ وأنا شديدة الرضا والسعادة معه . ولا أتمنى الا ان تكون في مثل مسعادتى .

فهز آخرها رأسه غير مصدق ، واستطردت هى :

— الأمر الوحيد الذى يقلقنى - الحق أقول لك يا أندريه -

هو طريقة ابي في التفكير في الامور الدينية . فليست افهم كيف ان رجلا له مثل هذا العقل الكبير يمكن ان يفوته ما هو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار . غيبسقط في مثل هذا الخطأ . وهذا هو الموضوع الوحيد الذي يتعمنى . ولكن حتى في هذا الشأن لاحظت في المدة الأخيرة شيئا من التحسن . فلم تعد سخرياته بالغة المرارة . وهناك راهب صار يستقبله ويتحدث إليه مدة طويلة .

فقال الأمير ساخرا ولكن في مودة :

— يا عزيزتى . اضئى ان تكونى انت وراهبك تضيئان جهودكما هياء .

— آه يا هديقى ! لا يسعنى إلا ان اضرع إلى الله واثق بأنه سيمنجب لى .

وبعد دقيقة صمت قالت على استحياء :

— سأطلب منك مكرفة كبيرة .

— ما هى يا عزيزتى ؟

— كلا . عدنى أولا انك لن ترفضى . وليس في هذا ازعاج لك او ما يقضى منك . ولكن ذلك مسوف يريحنى . عدنى يا أندريوشا !

ووضعت يدها في حقبة يدها وامسكت بشئ ما من غير ان تراه آياه . مما يدل على انها قابضة على موضوع رجائها . ولا يمكنها ان تبرز قبل ان يعدها . ونظرت إليه بتوسل . فقال الأمير أندريه وكأنه حين ما هى هذه المكرفة :

— حتى ولو كان في هذا ازعاج شديد .

— لك ان تظن به ما تشاء . فانا اعرف انك على شاكلة ابنى . وانت حر في رايك ولكن اصنع ما اطلبه منك لاجل خاطرى . فقد كان والد ابنى — جدنا — يلبس هذا الشئ في حروبه .

ولم تخرج هذا الشئ من حقبتها الصغيرة . بل قالت :

— عدنى أولا . هه ؟

— طيبا اعذك . ما هو هذا الشئ .

— أندريه . انى اباركك بالصورة المقدسة . ويجب ان تمنعنى انك لن تخلمها ، كى تسعدنى .

فقال الأمير أندريه :

— بشرط الا تزن طنبا ولا تكسر رقبتى . . اكراما لك اعذك بذلك .

ولاحظ على الفور تعبير الألم على محيا اخذه لهذا المزاج . وقال وكله ندم :

— انى سعيد بها حقا يا عزيزتى .

فقال بصوت يرتجف بالانفعال :

— رغم ارادتك سينجيك الله ويتعطف عليك ويجتذبك إليه . لانه هو وحده الحق والسلام .

وبأيامه جادة امسكت بيديها امام اخيها صورة صغيرة عشيقه الطراز بيضاوية مقبسة تمثل المخلص بوجه اسود على ارضية فضية . بدلاة من سلسلة فضية صغيرة دقيقة الصنع .

ورسمت الصليب على نفسها وقبّلت الصورة وقسمتها إليه
قائلة :

— أرجوك أن تلبسها يا أندريه من أجلى .

وومضت في عينيها الواسعتين أضواء حانية : فأضاعت
هاتان العينان الذنن والوجه الهزيل . وأوشك أخوها أن
ياخذ الصورة ، ولكنها استوقفت . ففهم أندريه ما تريد ورسم
على نفسه الصليب وقبّلت الصورة وبدأ على محياه الضمان
(الشدة تأثره) مع إشارات السخرية في الوقت نفسه . فقبلته
على جبينه وجلست مرة أخرى على الأريكة وهي تقول له :
« شكرا يا صديقي » ولأذا كلاهما بالصمت . ثم قالت :

— يجب أن نكون عطوفا وكريما كعادتك دائما كما قلت
لك يا أندريه . ولا تقسو في الحكم على ليذا . فهي عذبة
للغاية وطيبة القلب جدا . ووضمها الآن قاس جدا عليها .

— اعتقد أنني لم أقل لك شيئا يا مائشا يشتم منه أنني
الوم زوجتي على أي شيء ، أو أنني سأخطئ عليها . فما الذي
جعلك تقولين هذا كله لي ؟

نفخرج وجه الأميرة ماريا بالحيرة ومهنت : ولكنها أحست
أنها مذنبية .

— أنا لم أقل لك شيئا ولكنك خطبت في الأمر . وهذا
يحرزنى .

فازدادت البقع الحمراء في وجهها عند الجبهة والعنق
والخدين . وكان بوسمها أن تقول شيئا ولكنها لم تحر جوابا

فقد صدق حدس أخيه : لأن زوجته فرغت الدموع بعد الغداء
وقالت أنها تتوجس من تعسر الولادة وهذا يخيفها . وراحت
تندب حظها المائر وتشكو من حميها وزوجها . وبعد أن
أنهكها البكاء نامت . وشعر الأمير أندريه بالأسى لشقيقته .

— دعيني أقبل لك شيئا واحدا يا مائشا ، وهو أنني
لا ألوم زوجتي على أي شيء . ولم ولن ألوم نفسي على أي
عمل بازائها ، وسيكون الحال هكذا في أي ظرف أكون فيه .
ولكن أن أردت الحقيقة . وأردت أن تعرف هل أنا سعيد ،
فالجواب لا . أهى سعيدة؟ الجواب لا . ولم هذا؟ لست أدرى .
وفيما هو يقول هذا ذهب إلى شقيقته وقبلها على جبينها
وأضاعت عيناها البديعتان بوميض خارق للذكاء والطيبة .
ولكنه لم يكن ناظرا إلى شقيقته : بل إلى ظلام الباب المفتوح
فوق رأسها : ثم أوقف :

— هيا بنا نذهب إليها . فلا بد أن أودعها . وأفضل أن
نذهب إليها بمفردك لتوقظها وسأتيك بعد دقيقة .
ونادى خادمه الخاص قائلا :

— بتروشكا ! تعال هنا وخذ كل هذه الأشياء . وضع
هذه في المقعد الخلفي وضع هذه على الجانب الأيمن .

وتهضت الأميرة ماريا واتجهت نحو الباب ثم توقفت :
— أندريه ! لو كان لك إيمان لتضرعت إلى الله كي يهبك
الحب الذي لا تشعر به الآن . ولاستجاب لدعائك !

— لعل الأمر كما تقولين . أذهبى يا مائشا وسأتى أنا
على الفور .

وفي الطريق إلى حجرة أخته . في الرواق الذي يربط إحدى الدارين بالأخرى . قابل أندريه الأنسة بوريين مبتعدة عن ابتسامه عذبة . وعنده هي ثالث مرة في ذلك النهار تلتقي بنفسها في ابتسامه بريئة حساسية في طريقه بتلك المرات المنزلة . وقالت وهي تحمر خجلا لسبب ما وتقض بصرها .

— ٥٢ . لقد ظننتك في حجرتك .

فنظر إليها الأمير أندريه بجدة . وطفئت على محياه إمارات سقط غاضب . ولم يقل لها شيئا . ولكنه حلق في جبينها وفي شعرها من غير أن ينظر إلى عينيها بازدياد شديد حتى أن المراف الفرنسية صار وجهها قرمزيا وانصرفت من غير أن تنفس . ولما وصل أندريه إلى حجرة شقيقته كانت الأميرة الصغيرة قد استيقظت وسمع صوتها المرح من خلال الباب المفتوح . في كلمات سريعة التدفق . كأنها انطلقت في الكلام بعد طول كبح . كي تعرض مافاتها . . كانت كمادتها دائما تنكلم بالفرنسية :

— لا . بل تصوري الكونتس زوبوف المجوز ، بهوجات شعرها المستعارة ومنها الملائ بالأسنان الصناعية وكأنها تريد أن تتحدى السنين . ها ها ها ها . يا ياري !

ونفس هذه العبارة عن الكونتس زوبوف ونفس هذه الضحكة كال الأمير أندريه قد سمعها من زوجته خمس مرات من قبل أمام غرباء . ودخل الحجرة بخفية . وكانت الأميرة الصغيرة البضة الوردية اللون جالسة في مقعد منخفض واشغالها في يديها ، تتدفق منها ذكرياتها البطرسبرجية بهذه

العبارات . واتجه إليهما الأمير أندريه وربت على رأسها وسألها هل عوفيت من إرهاق الرحلة . فأجابته وواصلت كلامها .

وكانت المركبة ذات الجياد الستة أمام الدرج . واللبلة من ليالي الخريف المظلمة . فلم يتمكن الحوذي من رؤية العريش . وكان الخدم حاملين الفوانيس يجرون جيئة وذهابا على الدرج . والدار الكبيرة متوهجة بنوافذها المضاءة . ورقيق الدار قد تجمعوا في البهو الخارجي كي يودعوا أميرهم الشاب . أما في البهو الداخلي موقف كل أفراد الدار : ميخايل ايفانوميتش والأنسة بوريين والأميرة ماريا والأميرة الصغيرة . وكان الأمير أندريه قد استدعى إلى مكتب والده الذي أراد أن يودعه على أفراد . والجميع في انتظار خروجه من عنده . ولما دخل الأمير أندريه المكتب كان الأمير الشيخ لابسا نظارته وروبه الأبيض الذي لم يكن يقابل به أحدا سوى ابنته . وكان جالسا إلى المنضدة يكتب . وتلفت وقال :

— اذهب انت ؟

ثم واصل الكتابة .

— لقد جئت لأودعك .

— قبلني هنا !

ولس خذ .

— شكرا ! شكرا !

— وعلام تشكرني !

— على انك لم تتأخر عن موعدك المحدد ولم تنكأ بين
اثواب النساء ! الواجب قبل كل شيء ! شكرا ! شكرا !

وواصل الكتابة حتى لقد تناثر الحبر من القلم ، ثم
اردف :

— ان كنت تريد ان تقول شيئا قله ! ففى وسعى ان
اقوم بهذين الامرين معا .

— المسألة تتعلق بزواجى .. بخجلنى ان اتركها عبثا
على كاهلك ..

— لماذا تقول هذا اللغو ؟ قل ماذا تريد .

— إذا حان وضع زوجتى ، استدع من موسكو طبيبا
مولدا .. ليأتى إلى هنا .

فتوقف الشيخ ونظر إلى ابنه بعينين حادتين كأنه لم
يفقه . فقال الأمير أندريه مرتبكا .

— اعرف انه لا جدوى من احد إن لم تقدم الطبيعة عونها .
واعرف ان حالة واحدة فى المليون تشذ عن الطبيعة ، ولكن
هذا هو وهى ووهما . فقد حدثها الناس بأشياء ورات
حلمها ، وارتاعت .

فهمهم الأمير الشيخ لنفسه وهو يواصل الكتابة ثم قال :

— سأنفذ ما طلبت .

ومهر الورقة بتوقيعه ثم التفت إلى ابنه بسرعة وضحك
قائلا :

— مسألة سيئة . اليس كذلك ؟



وانغم إليها الأمير أندريه وريت على رأسها وسأها هل عرفت من
إرهاق الرحلة ..

— وما هي هذه المسألة السيئة يا أبى ؟

فقال الأمير الشيخ باقتضاب ذى مغزى :

— الزوجة !

فقال الأمير أندريه :

— لم افهم مرادك .

— ولكن لا حيلة في الأمر يا ولدى العزيز .. كلهم

عكذا ! ولا تفكك من الزواج بعد عقده . لا تخف . لن أقول

شيئا لأحد . ولكنك شخصيا تعرف هذه الحقيقة .

وقبض على يده بأصابعه الصغيرة النحيلة البسارزة العظام ، وهزها ، ثم نظر في وجه ابنه محققا بعينييه الثاقبتين اللتين كأنهما تنفذان إلى سريرة كل امرئ . ثم أطلق مرة أخرى ضحكته الجافة . فنهد الأبن . معتربا بتهده هذا ان أباه أدرك كنه طويته . وراح الأمير الشيخ بطوى الرسائل ويختبئها سرعته المعتادة وهو يحرك الشمع والأوراق والختم . ثم قال وهو يختم الرسالة الأخيرة :

— لا حيلة في الأمر ، نهى جيله . وسأفعل كل شيء . كن

مستريح البال .

ولم يتكلم أندريه . فقد سره وآله في آن واحد ان يفهمه

أبوه . ونهض الشيخ قائما وقدم الرسالة إلى ابنه قائلا :

— اسمع ! لا تقلق بشأن زوجتك ، نسيمل كل ما يمكن

عليه . والآن اصغ لى ! سلم هذا الخطاب إلى ميهايل

ايلاريونوفتش . وقد كتبت له ان يستفيد بك في عمل جيسد .

ولا يبيحك معاوننا مدة طويلة . فهذا عمل خسيس ! وقل له اني

اتذكره وأحبه . واكتب إلى كيف استقبلك ، فان كان على ما يرام
أخدمه ، فان ابن نيقولاى أندريتشى بولكونسكى لا حاجة به
إلى الخدمة تحت إمرة أى إنسان على سبيل المكرمة ! والآن
تعمل هنا !

وكان يتكلم بسرعة كبيرة حتى انه لم يكن يكمل نصف
الفاصله ، ولكن ابنه كان مضمودا ان يفهمه . وتناد ابنه إلى
المكتب وتفتح . وجذب درجا أخذ منه دفنرا مخطوطا مكتظا
بخط يده بحروف كبيرة ثم على الجراة . وقال :

— انا واثق بانى سأموت قبلك . وهذه مذكراتى التى
يجب ارتقيديها للامبراطور بعد موتى . ثم ها هو إذن مصرق
وخطاب ، وهو جائزة لمن يكتب تاريخ حروب سوفوروف .
ايتم بها إلى الاكاديمية . وهاك ملاحظاتى ، طالعها بعد
وفاتى لفائدتك الخاصة . فسوف تجدها مفيدة .

ولم يقل أندريه لابيه لعل إمامه سنوات كثيرة يعيشها ،
فقد كان يعرف انه لا حاجة به إلى هذا القول . بل قال :

— سأفعل هذا كله يا أبى !

فمد يده إلى ابنه كي يقبلها وعانقه قائلا :

— والآن وداعا ! وتذكر امرا واحدا يا امير أندريه ،
انك إن قتلت فسبكون ذلك مصدر حزن كبير لى في
شيخوختى ..

وسكت فجأة ، ثم فجأة ايضا استطرد بصوت أجش
وهو يرتجف :

— ولكنى إن عرفت أنك لم تسلك كما ينبغي لابن
نيتولاى بولكونسكى سوف أشعر بالعار .
فقال ابنه ياسا :

— لم تكن بك حاجة إلى أن تقول لى هذا يا أبى !

ولم يقل الشيخ شيئا ، واستطرد الأمير اندريه :

— ثمة شى آخر كنت أريد أن أطلبه منك .. إن قتلت
وكان لى ابن ، لا تدعه يقتل من يدبك ، بل ربه انت .. كما قلت
لك بالأمس .. أرجوك !

فقال الشيخ وهو يضحك :

— ولا أطلبه لزوجتك !

ووقف الاثنان متواجهين ، وعينا الشيخ الحادثان
شاحمتان إلى عيني ابنه . وعبرت ارتجافة بالجزء الأدنى من
وجه الأمير الشيخ .. وفجأة صاح بغضب وهو يفتح الباب :

— لقد انتهيئا من الوداع .. هيا امضى ! امضى !

وسالت الأميرتان عندهما لمحا الأمير اندريه ، ولحنا طرعا
من وجه الشيخ فى ردائه الأبيض ، وقد لبس نظارته وخلع
باروكنه ، وسمعه يصيح بذلك الصوت الغاضب :

— ما المسألة ! ماذا جرى ؟

فتنهذ الأمير اندريه ولم يجيب ، ثم التفت إلى زوجته
وقال :

— وبعد ؟

تبدت هذه الكلمة لونا من السخرية العاردة بانفعالها ،
وكانه يقول لها :

— هيا ادى مشهدك المألوف !

فقالَت الأميرة الصغيرة وقد شحب وجهها وهى تنظر
إلى زوجها برعب :

— اندريه ! اندريه !

فمناقتها ، وصرخت وارتدت على كتفيه مخشبا عليها .
ويحذر سحب كتفه من تحت وجهها ، ونظر إليه .. ثم وضعها
بضمائة فوق مقعد منخفض ، وودع اخته بحنان ، وقبل كل
منهما يد الآخر ، ثم غادر الحجرة بخطى سريعة .

ورقدت الأميرة الصغيرة فى مقعد كبير وراحت الأنسة
بوربين تدلك لها صدغها . أما الأميرة ماريا ، فوقفت تسند
زوجة أخيها ونظرات عينيها البديعتين الملتئمتين بالدموع
شاحصة إلى الباب الذى خرج منه الأمير اندريه ، ورسمت
عليه علامة الصليب . ومن حجرة المكتب سمع كطقات
المسدس صوت تخط الشيخ المفكر . وبعد ذهاب اندريه ،
انفتح باب حجرة المكتب بعنف ، وبرز منه الشيخ فى ردائه
الأبيض ، وقال بغضب :

— هل ذهب ؟ ما أبدع هذا !

فقد رأى الأميرة الصغيرة المفتى عليها ، وهز رأسه هذه
التفريع ، ثم صفق الباب بعنف .

القسم الثاني

- ١ -

في أكتوبر سنة ١٨٠٥ كانت الجيوش الروسية تحتل مدن وقرى أرشيدوقية النمسا . وظلت اللوية الجديدة تغد من روسيا وتفسكر حول قلعة براوانو . فانتقلوا كاهل السكان بايوائهم . وكانت براوانو مقر القيادة للقائد العام كوتوزوف ، وفي ١١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ توقف لواء بشاة وصل لئله إلى براوانو على مسيرة نصف ميل من المدينة انتظارا لقدم القائد العام للتفتيش . وبرغم اختلاف الإقليم تماما عن الطابع الروسي واختلاف البيئة (ثمة حدائق ناكهة وأسوار من الحجر وسقوف مرمدة ، والجبال القائمة عن بعد ، والفلاحون الأجانب ينظرون بفضول إلى الجنود الروس) إلا أن اللواء بدأ مطابقا بالضبط لكل لواء روسي عندما يكون على أهبة التفتيش في أي مكان في قلب روسيا . ففي المساء في آخر مراحل السبر وصلت الأوامر بأن القائد العام سوف يفتش اللواء أثناء الزحف . ومع أن القائد الأمر لم تبد واضحة تماما للقائد اللواء وحديث اختلاف حول هل المقصود الزحف أم نظام الزحف ، وأخيرا اتفقت كلمة الأمرين على عرض اللواء بترتيب الزحف على أرض الميدان . على حسب المثل القائل أن الأمر طفي الانحناء أفضل من عدم الانحناء بما فيه الكفاية . وهكذا بعد مسيرة ٢٥ ميلا لم يفض الجنود عيونهم بل قضوا الليل كله

في الرق والتعطيف . أما معاونون والضباط فراحوا يتشاورون ويراجعون كل شيء . وعند أنيلاج الصبح لم يبد اللواء على ما كان عليه من حشد غير منتظم في المرحلة الأخيرة من المساء المنصرم . بل بدا كتلة منظمة من ألفي رجل ، يعرف كل منهم دوره وواجبه ، وكل زر وكل حزام في وضعه الصحيح ويلمع من شدة النظافة . ولم يكن المظهر وحده هو الجيد . بل أن القائد العام إن خطر له أن يلقى نظرة على ما تحت الزي العسكري لراى على كل رجل منهم قميصا نظيفا ، ولوجد في كل « جريندية » العدد الذي تحدده اللوائح للمعدات . ولم يكن هناك الا مئثار واحد للطلق هو الاحذية ، فأكثر من نصف الجنود في أحذيتهم ثقوب . ولكن لا ذنب في هذا لقائدهم ، فعلى الرغم من مطالباته المتكررة لم تصله الاحذية بعد من السلطات النمساوية . مع أن اللواء سار على قدميه نحو سبعمائة ميل .

وكان قائد اللواء جنرالاً ديموي السحنة تجاوز منتصف العمر . كما الشيب شاربه وسوالفه وحاجبيه ، وهو عريض المنكبين مكتر . وعليه بزة جديدة لم تزل عليها تكسيرات الطلى ، ولها قصبات ذهبية ثمينة تبدو مثبتة على كتفيه الفيلبطين وبان عليه الرضا بأنه انجز واجبا من أهم واجباته في الحياة . وراح يتعشى أمام الطابور . ويرتجف في مشيته بهزة خفيفة من ظهوره مع كل خطوة . فقد كان واضح الأعجاب بلوانه سميدا به . ومن الجلى أن كل تفسكيره منصرف إلى لوانه . ولكن اعترازة مشيته كانت تنبئ أيضا عن ميله القلبي للحياة الاجتماعية وما فيها من ألوان اللهو ، وللجنس اللطيف !

وقال مخاطبا أحد المقربين الذي أقبل نحوه باسما مما
يطلق على انسجامهما :

— يا ميهائل ميريئش . لقد شغلنا بالعمل طول الليل .
ولكني اعتقد أننا أفلحنا . فاللواء ليس سيئا للغاية مثل بعض
الألوية الأخرى ، اليس كذلك ؟

وأدرك المقدم هذه السخرية المرححة وضحك قائلا :
— لن يكونوا محل امتعاض حتى لو كانوا في ساحة
العرض القيصرى !

وفي هذه اللحظة لاح على طريق المدينة فارسان على
جوادين ، حيث كان الديدبانات قد أقيموا لاعطاء النذير ، وكان
القاديان معاون يركب وراءه قوزاقى . وقد أرسل القائد
العام المعاون ، ليؤكد لقائد اللواء رغبة القائد العام في تفتيش
جنود اللواء بنفس الترتيب الذى وصلوا به ، وعليهم معاطفهم
وحاملين امتعتهم وبدون إعداد خاص من أى نوع .

وكان أحد أعضاء هيئة المستشارين الألمان قد قدم من
نيينا واجتمع بكونتوزوف في اليوم السابق ، وجعل يطلب منه أن
يتحرك بأسرع ما يمكن كي يلنجم بجيش الإرتشيونق غربيينائد
والجنرال ماك . ولكن كونتوزوف لم يرقه ذلك واعتزم أن
يطلع الجنرال النمساوى على الحالة الزريسة للقوات التى
وصلت من روسيا . ولهذا الغرض كان يريد عرض اللواء .
بحيث أنه كلما كانت حالته أسوأ كان ذلك ادعى لسرور القائد
العام . ومع أن المعاون لم يكن على علم بهذه التفاصيل :
إلا أنه أبلغ الرسالة لقائد اللواء ، بصرا على أن القائد العام

يريد أن يرى الجنود في معاطفهم وبترتيب زحفهم ، وأنه ما لم
يقم هذا فسوف يستاء القائد العام !

وما أن سمع الجنرال هذا حتى ثقل رأسه ، وهز كتفيه
وسط كتفيه بايماءة غضب :

— ها نحن قد اسأنا التصرف ! ألم أقبل لك يا ميهائل
ميريئش أن المراد عرضهم في معاطفهم !! يا إلهى !

وتقدم بعزم إلى الأمام وصاح بصوت من تعود الأمر
والنهي :

— نقيب السرايا ! ايها الرقباء !

والفتت إلى المعاون وسأله :

— هل سيحضر صاحب السعادة بسرعة ؟

— فى مدى ساعة ، كما اعتقد .

— الدينا وقت لتبديل ثيابنا ؟

— لا يسعنى أن أقدر هذا يا جنرال .

وجاس الجنرال بنفسه وسط الصفوف ، وأمر الجنود
بارتداء المعاطف . وركض النقيب وسط السرايا ، وراح
الرقباء يتحركون بنشاط جيئة وذهابا ، فالمعاطف لم تكن على
أحسن حال . وسرعان ما اختل نظام اللواء وكثر فيه اللغط
بعد أن كانت كتابته منتظمة صامتة . وراح الجنود يركضون
إلى الأمام والخلف فى كل اتجاه ، وينحنون ليحملوا امتعتهم
على ظهورهم بعد أن أخرجوا منها معاطفهم وودسوا أذرعهم
في أكمامها . وبعد نصف ساعة كان كل شيء على حاله السابق

وصارت الكتائب كلها رمادية اللون لا سوداء ، وراح الجنرال يتمشى ويهتز أمام اللواء ، ويرمقه عن بعد . ثم وقف ثابتاً وصاح :

— ماذا بعد هذا ؟ ما هذا يا نقيب السرية الثالثة .

وتجاوبت بين الصفوف نداءات :

— نقيب السرية الثالثة يوافق الجنرال . جنرال السرية الثالثة يوافق النقيب ! وجرى أحد معاوني للبحث عن الضابط المتأخر . . . وأخيراً برز الضابط المطلوب من وراء السرية مع أنه كان مسناً ولم يتمود الجري . إلا أنه مشى بخطوة سريعة نحو القائد وهو يتمتر بإطراف أصابعه . وبدأت على النقيب إشارات أوشاك تلميذ نودي لتسليم درسي لم يحفظه . وكسبت أنفه بقع حمراء لا يلبث أنها راجعة إلى كثرة معاقبته الخمر ، ولم يدر كي يسيطر على نفسه . وحده الجنرال بر أعلى إلى أسفل وهو يجري عندما أخذ يبطئ مع اقترابه منه . وصاح الجنرال وأبرز فكه الأسفل وهو يشير وسط صفوف السرية الثالثة إلى جندي عليه معطف من لئون مختلف عن الباقين :

— أحسبك ستلبس رجالك الثنورات بعد ذلك ! ثم أين كنت أنت ؟ أين في انتظار القائد العام وأنت لست في مكانك . وسألقك درسا على هذا الخلط في زي جنودك عند الفتيش !
مه !

ولم يحول النقيب عينيه قط عن رئيسه . وراح يضغط قبة قبعته بإصبعيه كأنها هذا الضغط هو الأمل الوحيد في نجاته . وقال الجنرال هائلاً به في مشاقبة شرسية :

— لماذا لا تتكلم ؟ من هذا الذي يرتدى زي أهل المجر ؟

— يا صاحب السعادة . . .

— أنت تكرر يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة

يا صاحب السعادة ! ولا أحد يعرف ماذا تعنى .

نقال النقيب بصوت خافت :

— أنه دوبروف ، الذي أنزلت رتبته يا صاحب

السعادة .

— هل أنزلت رتبته ليمر مارشالا أم جندياً عادياً ؟ إن

كان جندياً يجب إذن أن يرتدى زي سائر الجنود ، طبقاً لللائحة .

— ولكنك يا صاحب السعادة سمحت له بهذا اثناء

السير .

نقال الجنرال وقد هدا بعض الشيء :

— أنا سمحت له . هكذا أنتم دائماً ايها الشبان . إذا

قال المرء لكم كلمة ذهبنم و . . . أرجوك أن تلبس جنودك

كما ينبغي .

والثفت الجنرال إلى معاون ، وسار بمشيئته المهتزة

صوب اللواء . وكان واضحاً أنه مسرور من سورة غضبه ،

وراح ينقب بين الصفوف عن سقطّة يثور لها ، فصاح في وجه

هذا الضابط أو ذاك لاعوجاج في الصف . . إلى أن وصل إلى

السرية الثالثة حتى وقف قبل دولوهورف في معطفه الأزرق

بخمسة رجال . وصاح به في غضب :

— أين سائقك ؟ ما هذه الوقفة ؟ أين سائقك ؟

فبسط دلوهور ساقه الثنية ونظر بعينه الصافيتين
الوقتتين في وجه الجنرال .

— لماذا ترتدى معطفًا أزرق؟ أخضعه حاليًا! ... أيها الرقيب ابدل معطف هذا الـ ...

وقبل ان يتم كلمته اسرع دلولوهوف بقول :

— أنا ملزم بإطاعة الأوامر ، ولكنني غير ملزم بتحمل ..

— لا كلام في الطابور ! لا كلام ! لا كلام !

مواصل دواو هوف كلامه قائللا بصوت واضح مرتفع :-

سے لست ملزما بنجمل الہاتات .

والتقت عينا الجنرال والجندى ، فسكت الجنرال وجذب

وَشَاحَهُ إِلَى اسْفَلٍ . ثُمَّ قَالَ وَهُوَ مُنْصَرَفٌ :

— ابدل معطفاك إذا سبحت !

- ۲ -

وفي هذه اللحظة صاح الديديان :

— قادمون !

فاحمر وجه الجنرال وجرى إلى جواده ، وباداه
الرتجفنان على الركاب ، ثم قذف بنفسه إلى أعلى واستقر في
سرجه وامتشق حسامه ، ولوى منه وتأهب للذءاء ، وانقض
اللواء كله كأنما هو طير يهتد جناحيه ثم غاء إلى المثبات
والسكون . وهدير صوت الجنرال بصوت صارخ :

— سکوت !

معبرا في آن واحد عن السرور بنفسه ، والصرامة بأزاء اللواء ، والفرحيب بالقائد العام الذي يقترب . وجاءت مركبة عالية زرقاء من طراز «فينا» تجرها عدة خيول في خيب نشط ، ولولبها تقمع على الطريق الكبير غير المرصوف ، وعلى جانبيه الأشجار المروشة . وكانت كوكبة من حاشية الجنرال ومرافقيه الكرواتيين تركض وراء المركبة . وإلى جوار كوتوزوف جلس جنرال نيساوى في بزة عسكرية بيضاء بدت غريبة المنظر وسط البزات الروسية السوداء ، وكان كوتوزوف والجنرال النيساوى يتحدثان بصوت خفيض في شأن من الشؤون . وانسم كوتوزوف ابتسامة سيرة وهو يضع قدمه على درج المركبة وكان هؤلاء الاثنين من الرجال المحققين فيه وفي جنرالهم وقد كبوا انفسهم لا وجود لهم على الاطلاق . ودوى النداء الامر . فالتفتض اللواء مرة اخرى مع صليل سلام السلاح . وفي الصمت الرائن سمع صوت القائد العام . نصاح اللواء كهدير الرعد .

— فواك الله يا صاحب السما ... السعادة !

ثم ساد الصمت من جديد . ووقف كوتوزوف في البداية في موضع ما واخذ اللواء يتحرك . ثم شرع كوتوزوف بمشي راجلا بين الصفوف وبجواره الجنرال الأبيض ووراء الحاشية . ومن الطريقة التي حيا بها الجنرال قائد اللواء العام « مشينا عينية فيه وبكل احترام وخضوع » بل ومن طريقة مشيه في أثر الجنرالين بين الصفوف مظهرنا من اهتزاز مشيته . واندفاعه لتسقط كل كلمة وكل إيماءة تصدر من القائد العام .. كان واضحا انه يؤدي واجباته كمزعوس بحماسة أشد من

تأديته لواجباته كقائد . وبفضل دقة ومثابرة هذا القائد كان اللواء في حالة ممتازة بالتفاس إلى الألوية الأخرى التي وصلت قبله إلى براونساو في نفس الفترة . ولم يتجاوز المرضى والمظكون الذين تركوهم وراءهم أكثر من ٢١٧ جنديا . وكان كل شيء على ما يرام فيما عدا احذية الجنود .

وراح كوتوزوف يشقى بين الصفوف . متوقفا في الحين بعد الحين ليقول كلمة مودة لضباط عرفهم في الحرب ضد تركيا . بل وأحيانا يقول مثل ذلك للجنود . ولما نظر إلى احذيتهم هز رأسهم بأسى وهو يوجه نظر الجنرال النمساوي إليها . لا على سبيل توجبه اللوم لاي أحد . بل أعرابا عن أنه لا حيلة له في إدراك حالتها السيئة . وكان قائد اللواء في كل مناسبة من هذا القبيل يجري إلى الامام خشية ان تفوته كلمة واحدة مما يقوله القائد العام عن اللواء . ومن وراء كوتوزوف تسير حاشيته بحيث تسمع كل كلمة يتفوه بها مهما كان مسوته خفيا ، وهم قرابة عشرين شخصا ، يتبادلون الاحاديث فيما بينهم . وأحيانا يضحكون . وكان اقربهم إلى القائد العام معاون وسيم هو الأمير بولكونسكى . وإلى جواره زميله نسفنىكى . وهو طويل القامة من ضباط اركان الحسرب . شديد الاكتناز ، ذو وجه وسيم باسم يتم على طيبة . وعيناه نديتان . ولم يكذ نسفنىكى يكتم مرحة الذي اثاره ضابط «هوسار» يسير بقرية . فهذا الضابط ، من غير ان يبتسم أو يرفغم على وجهه وعينه الثابتين اى تعبير . كان يحدق في ظهر قائد اللواء بكل جدية ويقلد كل حركة تصدر منه . في كل مرة يرتجف فيها أو ينتفض ويندفع للامام كان هذا الضابط من

«الهوسار» ينتفض ويندفع إلى الامام على نفس النحو تماما . وضحك نسفنىكى وكثر الآخرين ليحملهم على النظر إلى هذه المحاكاة .

اما كوتوزوف فكان يمشى ببطء وملا انحراف بين اللوف الاعين التي أوشكت ان تبرز من محاجرها كي ترقبه . ولما وصل إلى السرية الثالثة وقف فجأة . ولم تتوقع الحاشية هذا التوقف فازداد اقترابها منه . وقال القائد العام وقد عرف التقيب ذا الانف الاحمر الذي كان قائده قد وبخه بسبب المعطف الأزرق :

— آه ! نيموهين !

ووقف نيموهين في غاية الانصباب بحيث لو طال وقوف القائد العام امامه لانهارت صلابة هذه الوقفة العسكرية . وادرك كوتوزوف ما هو غيه من محنة . فاعرب له عن اطلب تمنياته ثم اسرع بالانصراف عنه وقد لاحت على وجه كوتوزوف ابتسامة لا تكاد ترى . وهو وجه قصير بدين شوهنه نديه جرح . وقال :

— انه رفيق ملاح آخر في موتمعه . اسمعيل ضابط باسل .

وسال قائد اللواء :

— اراض انت عنه ؟

وانتفض قائد اللواء — الذى لا يدري ان ضابط الهوسار يقلده من وراء ظهره — وتقدم إلى الامام وقال :

— كل الرضا يا صاحب الفخامة !

فابتسم كوتوزوف وهو منصرف عنه :

— لكل منا نقطة ضعفه . فهو من عشاق الخمر ..

وخشى قائد اللواء أن يلحقه من ذلك ملام فلاذ بالعصمت
ولاحظ ضابط الهوسار في تلك اللحظة وجه النقيب ذي الأنف
الأحمر . وقد امتص بطنه إلى الداخل . غثلد وجهه ووقفته
تقليدا طبق الأصل فلم يستطيع نسففسكى كبت ضحكته .
فالتفت كوتوزوف إلى الخلف . وكان الضابط قادرا أن يمتنع
بوجهه أى شيء يشاء . فعلى لوح البصر ما كاد كوتوزوف يلتفت
حتى أرسيت على محيا الضابط إمارات الاحترام الشديد
والجد النام والبراءة الكاملة .

وكانت السرية الثالثة هي الأخيرة . وبدأ على كوتوزوف
أنه يفكر كمن يحاول أن يذكر شيئا ما . فمقدم الأمير أندريه
إلى الامام وقال له بالفرنسية بصوت خفيض :

— لقد طلبت منى أن أدركك بالضابط الذى أنزلت رتبته .
وهو دولوهوف الذى يخدم في صفوف الجند بهذا اللواء .

فقال كوتوزوف :

— أين دولوهوف ؟

وكان دولوهوف قد صار الآن في معطف رمادى برتبة نحر
فلم ينتظر إلى أن ينادى عليه قائد بل خطأ خارجا من الصف
يشعره الأصفر وعينه الزرقاوين اللامعين . وانجه نحو القائد
العام وادى سلام سلاح . نسأله كوتوزوف مقطعا بعض
الشيء :

— أتريد التقدم بشكوى ؟

فقال الأمير أندريه :

— بل هذا هو دولوهوف .

آه ! أرجو أن يكون هذا مراسلك . وقم بواجبك على
ائم وجه . والإمبراطور رحيم وسوف لا أنساك . إن أثبت أنك
جدير بهذا العفو .

ونظرت العينان الزرقاوان إلى القائد الأعلى بنفس
التبجح الذى نظره به إلى قائد لوائه . كأنها يميز بذلك فناع
العرف الذى يبعد كثيرا بين القائد العام والجندى . وقال
بصوته الثابت الرنان الثانى :

— المكرمة الوحيدة التى أرجوها من نخامتك أن تمنحنى
الفرصة لأكثر عن إساءتى . وأثبت ولائى لجلالة الإمبراطور .
ولروسيا .

وأشاح عنه كوتوزوف وفى عينيه نفس الإيذاء التى
أشاح بها عن النقيب نيموهين . أشاح وعيسى . كأنها يقول
إن كل ما قاله دولوهوف وما يمكن أن يقوله معلوم له منذ أمد
طويل . ولأن ذلك أسامه إلى حد السقام منذ زمن بعيد .
فليس هذا هو المطلوب إطلاقا . واستدار متوجها إلى المركبة .

وانحل اللواء إلى سرايا وتوجه صوب ما خصص
لأيوانهم على مسافة غير بعيدة من براوانا . حيث يأملون أن
يجدوا أحفنه وملابس ويخلدوا إلى شيء من الراحة بعد
رحلتهم الشاقة .

وقال قائد اللواء الذى لحق بالسرية الثالثة راكبا حتى
حاذى النقيب نيموهين الذى كان يسير فى مقدمتها :

— لا تحمل لى ضفنا يا بروهور إجنانتشى !

وكان وجه قائد اللواء يطفح بشرا وسرورا بعد التفتيش
الناجح لم يستطيع كتمانها وأردف :

— إنها لخدمة القيصر .. ولا حبله فى هذا .. ولابد
أحيانا أن يكون المرء جادا دقيقا عند التفتيش . وأنا أول من
يعتذر ، فأنت تعرفنى .. وهو قد سر كثيرا .

وهد يده إلى نقيبته الذى قال :

— اطلاقتا يا جنرال .

وأزداد أحمرار أنفه وأبنسم فكشفت ابتسامته عن نقد
سنينه الأمايبير بضربة من كرنوثة بندقية فى معركة اسمعيل .

— وقل لدولوهوف اتنى لن انساه . فلا يقلق بهذا
الخصوص . وأرجوك أن تحيطنى علما بسلوكه . والحق اتنى
كنت انوى أن استوضح هذا ..

— إنه دقيق جدا فى قيامه بواجباته يا صاحب السعادة
.. ولكنه غريب الأطوار .

— كيف هذا ؟ وبأى وجه ؟

— أنه مختلفا عن الباقين باختلاف الأيام يا صاحب
السعادة . ففى يوم ما تجده معقولا مهذبا طيبا ، ثم إذا به
نجاة يتنهر كالوحش الضارى .. حتى أنه كاد يقتل يهوديا قُ
بولندة .

— طيب . طيب . مع هذا يجب أن يعطف المرء على
شباب فى محنة ، فله أثارب كبار كما تعلم ، ولذا عليك أن ..
فأنبسم تيوهين ابتسامة تدل على أنه فهم مراد رئيسه
فى هذا الصدد وقال :

— مفهوم يا صاحب السعادة .

وركب الجنرال وسط الصفوف إلى أن وصل إلى
دولوهوف وقال له :

— عند أول عملية قد نستعيد علامات رتبك .

فالتفت إليه دولوهوف ولم يقل شيئا . ولم يحدث أى تغير
فى خطوط ابتسامته فمه السافرة . واستطرد الجنرال
بصوت يسمعه كل الجنود :

— كل شىء على ما يرام إذن . كاس من البراندى منى
لكل واحد منكم . واشكركم جميعا . والحمد لله كثيرا ...

ودار بحصانه حول السرية ثم ركض إلى سرية أخرى
نقال تيوهين للملازم الذى كان يسير بجواره :

— أنه حقا رجل طيب . ويستطيع المرء أن يعمل تحت
أمرته فى سر .

نقال الملازم ضاحكا :

— أنه ملك الكوبة ! هذا خير ما يقال عنه .

فقد كانت كنية قائد اللواء « ملك الكوبة » ، وهى ورقة
« الشايب » التى علامتها القلب فى أوراق الكوتشينة .

وسرى سرور الضباط بعد التفتيش إلى الجند : فمضت
السرايا تمشى بهرح ، وأصواتهم تتعالى بالثرثرة من كل جانب :

— اليس يقال أن كوزوف أعور ؟

— بلى ! أحدى عينيه عمياء تماما .

— لا نقل هذا ! أنه أحد بصرا منك ، ألم تر كيف نظر
إلى أحذيتنا وامتعنتا ...

— الحق يا «دفعه» أنني قلت في نفسي عندما نظرت
إلى قدمي ...

— والجنرال الآخر كان نمساويا . فكانه مطلقا
بالمطاسير . أبيض كالذهب . وأكد لك أنهم مجلونه كما نجلو
نحن سادتنا .

— قل لي يا «فيدوشو»! أقال شيئا عن متى تبدأ المعارك؟
لقد كنت اقرب إليه . ويتقال أن بونايرت نفسه كان في
براوناو !

— بونايرت ! ما هذا الهراء ؟ أن البروسيين هم الذين
تمردوا . ويحاول النمساويون تهدئتهم . ومتى هداؤا بدأت
الحرب مع بونايرت . وصاحبنا هذا يزعم أن بونايرت في
براوناو ! واضح أن الفتى أبله . وخير لك أن تفزع أذنك
لا نيك !

— ومع امناء الثميين هؤلاء .. أن السرية الخامسة
صارت الآن في القرية ويقومون بطهو عصيدهم .. ونحن لم
نصل بعد .

— اعطنا بسكويتة يا صديقي !
— وهل اعطيني أنت طباقا بالأس ؟ وهو كذلك
يا فتى ! كان الله بك !

— كان ينبغي أن يبقوا للراحة . والا بعين علينا المسير
أربعة أميال أخرى بدون أكل .

— لقد كان الألمان كرماء ببركاتهم . فكان التقدم سهلا .
— أن الناس هنا يا أولاد مجردون من كل شيء . أما



ودار بحصانه حول السرية ثم ركض إلى سرية أخرى ..

هناك فكان الناس كلهم بولنديين خاضعين للتاج الروسي .
والآن فنحن في أرض الألمان الخالص .

وصاح الثقيب :

— لبش المنشدون في المقدمة !

ومن مختلف الصفوف برز إلى المقدمة نحو عشرين رجلا . يقودهم الطبيب الذي استدار ليوأجه الجوقة وجعل بلوح بذراعه . وبدا في عزف أغنية من أغاني الجند أولها :
« كانت الشمس قد بزغت لتوها » وتنتهى بـ « لذا يا غتيان سنزحف إلى المجد مع الأب كامنسكى » . . وكانت هذه الأغنية قد نظمت في تركيا وما هي الآن تنشد في النمسا مع تغيير اسم كامنسكى إلى اسم كوتوزوف !

وجعل الطبيب وهو جندى وسيم تحيل في سن الأربعين بنزع الكلمات الأخيرة بلهجة عسكرية وهو يحرك ذراعيه كأنه يورش شيئا على الأرض . وهو ينظر إلى جوقة الجند بقطبا . ولما اطمأن إلى أن كل العيون مركزة عليه . جعل يرفع ذراعيه كمن يرفع بكلتا يديه شيئا ثمينا فوق رأسه . ثم بعد لحظة انزل ذراعيه نجاة في حركة مستقيمة كأنما ليلقى عنه ما كان يحمله :

« آه ! عتبة كوخى

كوخى الجديد . . . »

والتمط المشرون صونا هذه اللازمة ، وتقدم ضارب الصنج رغم امتعته الثقيلة وسلاحه واستدار لبشى بظهوره في مواجهة السرية هازا كنفه وكأنه يهدد شخصا ما بصنجه .

وانتظمت خطوات الجند مع ايقاع الأغنية بطوحين أذرعهم . ومن وراء السرية تراءت قمممة العجلات واللوالب ووقع حوافر الخيل . فقد كان كوتوزوف وبطلانته عائدتين إلى المدينة . وأشار القائد العام إلى الجنود أن ينطلقوا على سجيبتهم . وبدا أنه وكل بطانته كانوا ممرورين بصوت الغناء ومنظر الجندى المترامس والجنود السائرين بمرح . وفي الصف الثانى من الجناح الأيمن لحوا الجندى الأزرق المينين دولوهوف وهو يرمى وجوه هؤلاء الراكبين وكأنه يرش لكل من ليس سائرا في الصفوف . وكان ضابط الهوسار في بطانة كوتوزوف الذى قلند جنرال اللواء قد وثب من المربة وذهب إلى دولوهوف . وكان اسمه زركوف « وفي وقت ما كان من الزمرة المرححة ببطرسبرج التى كان يتزعجها دولوهوف . وكان قد التقى به في الخارج وهو « نفر » ولم يجد حينئذ من المناسب أن يبدي معرفته به . أما الآن بعد حديث كوتوزوف مع دولوهوف . فما هو قد جاء يخاطبه بمودة الصديق القديم . وقال وسط ضجة الأغنية :

— يا صديق نؤادى . كيف حالك !

تأجابه دولوهوف ببرود !

— كيف حالى ؟ كما ترى !

وابرزت الأغنية المرححة النكهة الخاصة للهجة زركوف المرححة وأجابه دولوهوف ببرودة المتعبد :

— وكيف أحوالك مع ضباطك ؟

— على ما يرام . فهم طيبون ، ولكن كيف ادخلت نفسك في زمرة أركان الحرب ؟

— الحقت بآركان الحرب . . في مهمة !
— وساد الصمت بينهما .

وتوالث الأغنية : « لقد أخفت معى بائزى . واطلقت
سراجه من فوق كفى ! » مثيرة بذلك إحساسا بالشجاعة
والمرح . ولا شك أن حديثهما كان من المحتمل أن يكون مختلفا
لو لم يقبدا له أثناء تلك الأغنية . . وسال دولوهوف :

— أصبح أن النمساويين هزموا !
— الله أعلم . هكذا يقولون !

فقال دولوهوف باقتضاب يناسب إيقاع النغمة :
— يسرنى هذا !

— نعال عنقنا في إحدى الأمسيات . وسنلعب لعبة
« مارو » !

— هل معكم ورقة من النقود إلى هذا الحد !
— يجب أن تأتى .
— لا استطيع فقد اقتسمت على هذا ! ولن أشرب
الخير أو أقامر قبل ترقبتي .
— ولكن هذا سيحدث بعد أول عملية . .
— عندئذ سنرى !

وصمعا مرة أخرى . ثم قال زركوف :
— تعال إن احتجت إلى شيء . فالذين في أركان الحرب
يستطيعون أسداء النفع دائما . . .

فمايضم دولوهوف ابتسامة كالحة وقال :
— لا تتعب نفسك . فما أريده أن أطلبه من أحد ، بل
سأأخذه بنفسى !

— آه . إنها أردت فقط . . .
— إلى اللقاء .
— إلى اللقاء .

« وانطلق البارحرا إلى بعيد . إلى وطنه . .
وانصرف زركوف وركب جوادا ركض به إلى المركبة ،
على إيقاع الأغنية .

— ٣ —

على اثر عودة كوتوزوف من العرض وفي صحبته الجنرال
النمساوى ذهب إلى حجرته الخاصة واستدعى معاونه
وطلب منه أن يوافيه بأوراق معينة لها علاقة بحالة القوات
التي وصلت حديثا ، وايضا بخطابات تلقاها من الارشيدوق
فرديناند الذى كان يقود الجيش في الجبهة . وحضر الأمير
اندرية بولكونسكى بالأوراق المطلوبة إلى الحجره التي كان
كوتوزوف جالسا فيها مع عضو القيادة الألمانية وامامهما على
المنضدة خطة العمليات . والتقت كوتوزوف إلى بولكونسكى
وقال « آه ! » وكأنه يدعو معاونه بذلك الكلمة للانتظار ثم
واصل حديثه بالفرنسية . بنبرة لطيفة رشيقة ترغم المرء على
الاصفاء لكل كلمة يتنوه بها . وكان واضحا أن كوتوزوف
يصنى لصونه بكل تلذذ .

— لا يسعنى أن أقول إلا كلمة واحدة ، وهى أن الأمر
لو كان منوقفا على رغباتى الشخصية . لكنت رغبة جلالة

الإمبراطور فرنسيس قد نفذت منذ وقت طويل ، ولكنت انضمت إلى الارشيدوق منذ أمد بعيد . وصدقنى وأنا أقسم بشرقى أنه بالنسبة لى شخصيا كان أروح لنفسى أن أسلم القيادة العليا للجيش إلى جنرالات أكثر منى خبرة ومهارة ممن ترخر بهم النمسا ، وبذلك ألقى على كل هذه المسئولية الثقيلة . ولكن الظروف أقوى منا كثيرا يا جنرال .

وابتسم كوتوزوف ابتسامة كانها تقول :

— أنت حر تماما فى الاتصاف قولى هذا . فذلك مندى سيان . ولكك لا تملك دليلا على عدم صدقى . وهذا هو المهم !

وبدا على الجنرال النمساوى عدم الاقتناع ، ولكن لم تكن له حيلة فى الرد على كوتوزوف بنفس اللهجة ولكن بصوت شكس حرج مبين تماما لنعمومة الفاظه المتلفة :

— بالعكس ! أن مشاركة فحائتمكم فى العمليات المشتركة موضع تقدير كبير من صاحب الجلالة ولكننا نعتقد أن التأخير الحالى ينفوت على القوات الروسية الباسلة وقائدها العام أكابيل الفار الذى تعودوا على النوز بها فى العمليات .

وواضح أنها عبارة كان قد أعدها فى ذهنه سلفا ، فانحنى كوتوزوف وقال بنفس الابتسامة :

— ولكنى مقتنع ببناء على الخطاب الآخر الذى شرمنى به سمو الارشيدوق نرديناند أن القوات النمساوية — نيبا انصور — تحت قيادة قائد موهوب كالجنرال ماك . لا بد قد حققت نصرا حاسما ولم تعد بحاجة إلى عون من جانبنا !

فتجهم الجنرال . ومع أنه لم تكن هناك أنباء مؤكدة عن هزيمة النمساويين إلا أنه كانت هناك ظروف كثيرة مؤيدة لهذا الاعتقاد ، لذا بدا كلام كوتوزوف عن نصر النمساوى وكأنه غمزة هزء . إلا أن كوتوزوف ابتسم بضمائة ليوحى بأنه على حق فى هذا الظن . والواقع أن الخطاب الآخر الذى وصله من جيش الجنرال ماك كان يتحدث عن نصر ، وعن امتياز الوضع الاستراتيجى للجيش . وقال كوتوزوف للأمر أندريه « أعطنى ذلك الخطاب » والتفت إلى ضيفه وقال :

— هاك ! تكرم بالقائه نظرة .

وبابتسامة ساخرة على ركنى فمه راح يقرأ بالألمانية الفقرة التالية من خطاب الارشيدوق :

« لدينا قوة متجمعة من قرابة ٧٠.٠٠٠ رجل لمهاجمة العدو وقهره إذا ما عبر نهر ليتشى » وبما أننا سادة (أولم) ، فلا يمكن أن نفقد مزبة البقاء سادة أيضا لضفتى الدانوب ، وأما إن لم يعبر الأعداء نهر ليتشى ، ففى وسعنا أن نعبى الدانوب فى أى لحظة وننقض على خط مواصلاتهم ، ثم نعود إلى عبور الدانوب من موضع آخرى ونقاوم هدف الأعداء إن أرادوا أن يتحولوا بكل ثوتهم ضد حليفنا المخلص ، وبذلك ننتظر بشجاعة اللحظة التى يكون فيها الجيش الإمبراطورى الروسى مستعدا ، ويتسنى لنا عنئذ بسهولة أن نتحين الفرصة ونستعد لإنزال الهزيمة التى يستحقها هذا العدو .

وختم كوتوزوف هذه الفقرة بزمرة ونظر باسما وتلفظ إلى عضو القيادة النمساوى ، الذى قال بلهجة من يريد

الخلاص من المجاملات الهائلة ليتكلم في صميم الموضوع . ولم ينمالك نفسه أن ينظر إلى المعاون :

— ولكذك تعرف يا صاحب النخامة الوصية الحصيفة التي تأمرنا أن نتأهب لأسوأ النتائج .

مقاطعه كوتوزوف وهو يلتفت أيضا إلى الأمير اندريه :

— عفوك يا جنرال . اعطنى يا ولدى العزيز كل تقارير طلائعنا الاستكشافية من كرلوفسكى . وهامها خطانان من الكونت نوستيتز . وهامو خطاب من سمو الأرشيبوق نردينايد . وهالك خطابا آخر . استلخص من كل هذا مذكرو فرنسية واضحة مبينا بها كل المعلومات التي حصلنا عليها من تحركات الجيش النمساوى . وسعد الفراغ من التقرير اطلع عليه صاحب السمادة :

فانحنى اندريه محمرا عن فميه منذ أول كلمة ليس لما قاله كوتوزوف فقط بل أيضا كل ما اراد قوله . وجمع الأوراق . وانحنى انحناء شاملة . وخطا بخفوت فوق البساط وخرج إلى قاعة الانتظار .

ومع أن الأمير اندريه لم يغادر روسيا إلا منذ وقت قصير ، إلا أنه تغير كثيرا . فلم يكد يبقى اثر تقريبا في تعبير وجه وإيماءاته وخطواته كما كان يمهده فيه الناس من تصنع وسام وتراح فليس لديه الآن وقت للتفكير في الانطباع الذي يتركه في الآخرين . بل هو منهمك في العمل الذي وجدته مستحبا وشائقا معا . ولذا يتم محياه على رضاه عن نفسه وعن حوله . وصارت ابتسامته ونظراته أخف ظلا وأكثر حاذية .

وكان كوتوزوف الذي لحق به في بولسده قد استقبله بكل مودة . ووعد الابنساء ، واختاره من بين معاونيه وصحبه معه إلى فيينا وعهد إليه بأخطر المهام . ومن غيبسا كتب كوتوزوف إلى رفيق سلاحه القديم والد الأمير اندريه قائلا :

— ابنك يشير بأن يكون ضابطا بمعنى الكلمة يقيم سمعته بجده وحزمه وأمانته . وائى اعد نفسى محظوظا لحصولى على مثل هذا المساعد .

وبين أركان حرب كوتوزوف وبين زملائه الضباط . وى الجيش عموما كانت للأمير اندريه — مثلما كان له من قبل في مجتمع بطرسبرج الراقى — شهرتان متناقضتان . فالأقلية كانوا يمدون الأمير اندريه كائننا مختلفا عنهم وعن سائر الرجال . ويتوقعون منه عظام الأعمال . وبصفون له ويتحمسون للنماء عليه ويتلدونه . ومع هؤلاء كان الأمير اندريه صريحا ولطيفا . أما الأغلبية فلم يحبوه ويرونه مثيرا للاشمئزاز وغير مستحب . ولكنه كان مع هؤلاء أيضا يعرف كيف يسلك بحيث يحترمونه ويخشونه .

ولما خرج الأمير اندريه من حجرة كوتوزوف إلى قاعة الانتظار ذهب ومعه أوراقه إلى زميله المعاون النوب كرلوفسكى . الذى كان جالسا عند النافذة وبيده كتاب . وسأله كرلوفسكى :

— ماذا هناك يا أمير ؟

— لقد طلب منى أن اعد مذكرو عن سبب عدم تحركنا إلى الامام .

— ولماذا لم نتحرك ؟

فهز الأمير اندريه كتفيه . وسأله كزوفسكى :

— ألم تصل انباء من ماك ؟

— لا .

— لو صح انه هزم لكانت الانباء قد وصلت .

فقال الأمير اندريه .

— على الأرجح .

وانتجه صوب الباب ليخرج . لولا انه التقى في طريقه
برجل طويل دخل في اللحظة قاعة الاستقبال وصفق
الباب . وواضح ان هذا الغريب الذى وصل لتوه جنرال
نمساوى في ستره طويلة عليه ضمادة تحيط براسه ، وعلى
عنقه وسام ماريا تيريزا . فوقف الأمير نابغا . وسأله ذلك
الجنرال بلهجة المائنة مجة وهو يتلفت حواليه :

— انا القائد العام كوتوزوف ؟

وعلى الفور انتجه إلى باب الحجرة الخاصة ، فأسرع
كزوفسكى إلى الجنرال المجهول وسد عليه طريقه إلى الباب
قائلا :

— القائد العام مشغول . اسمك من فضلك كي أذكره

له .

فنظر الجنرال المجهول بازدياء إلى قائدة كزوفسكى
القصيرة كالتعجب من جهلهم هويته ، فكرر كزوفسكى بهدوء
قوله :



فأسرع كزوفسكى إلى الجنرال المجهول وسد عليه طريقه إلى الباب قائلاً :

— القائد العام مشغول . اسمك من فضلك كي أذكره له .

— القائد العام مشغول .

فتقبض وجه الجنرال وارتمشت شفتاه ، وأخرج تفتسر
مذكرات وخط فيه شيئا بقلم الرصاص وقطع الورقة وقدمها
إلى كزوفسكى . وبخطى سريعة أنجه إلى النافذة وانحط
على كرسي ، وشمل الموجودين في القاعة بنظرة منه كمن
ينسأل فيم تحدثهم فيه . ثم رجع الجنرال رأسه ومد عنقه
للأمام كمن ينوي أن يقول شيئا ، ولكنه سرعان ما بدا فجأة
يهمهم لنفسه بصوت غريب لم يلبث أن قطعه فجأة . وانفتح
باب الحجرة الخاصة . وبرز كوتوزوف . فأتحنى الجنرال
المصوب الرأس كمن يمر من خطر . وخطا نحو كوتوزوف
وهو يحرك ساقيه النحيلتين بسرعة . وقال بالفرنسية
بصوت متكرر .

— ها أنت ترى ماك المفكود !

وظل وجه كوتوزوف وهو واقف في مرحلة الباب لا يتم
على شيء عدة ثوان . ثم لاح على وجهه عبوس عابر كأنه
موجة لم تلبث أن انحسرت عن جبينه فماد أجلس . وأحنى
رأسه باحترام . وأغمض عينيه وأشار إلى ماك ليتقدمه إلى
الداخل من غير أن ينطق بكلمة . ثم أغلق الباب وراءه .

وبذا كانت الشائعة التي دارت على الألسن قبل هذا
عن هزيمة النمساويين واستسلام الجيش بأكمله في (أولم) قد
بانت حقيقة . وفي مدى نصف ساعة كان المعاومون قد بعثوا في
كل الاتجاهات حاملين الأوامر . وصار من الجلى أن القوات
الروسية التي ظلت حتى هذا الحين بلا حراك لابد أن تلاقى

العدو عن قريب . وكان الأمير أندريه أحد ضباط أركان الحرب
القاتل الذين بنصب اتهامهم على السير العام للحرب . فلما
رأى ماك وعرف تفصيلات اندحاره أدرك أنهم خسروا نصف
الحرب ، وأدرك كل صعوبات وضع القوات الروسية .
ونصور لنفسه بكل وضوح ما سيواجهه الجيش . والدور
الذي يحتل أن يقوم به في العمليات المرتقبة . ولم يسهل أن
بغلب شغورا بالفرح الغامر لمجرد التفكير في الهوان الذي
لحقه النمسا المفرورة بنفسها . ونوقع أن يرى ربما في مدى
اسبوع واحد ويشارك في التقاء الروس بالفرنسيين ، وهو
أول التقاء لهما منذ عهد سيفوروف . بيد أنه كان يخشى
عبقرية بومبارت التي قد يتضح أنها أقوى بأسا من شجاعة
الجيش الروسية . وفي الوقت نفسه لم يطق مواجهة فكرة
انكسار عظمه الأثير ووصفته بالخزي .

ونحت تأثير هذه الأفكار أنحه الأمير أندريه إلى حجرته
الخاصة ليكتب إلى أبيه . الذي كان يرسل إليه في كل يوم
خطابا . وفي الدليل قابل نيفنسكى الذي كان يشاركه
حجرته . ووجد معه الرجل الفكاه الهازل زركوف ، وكانا
كالمعادة بضحكاً من شيء ما . ولاحظ نيفنسكى شحوب وجه
الأمير أندريه ولمعان عينيه فسأله :

— قيم كل هذا الاكتئاب ؟

— ليس هناك ما يبهج .

وفي نفس هذا الوقت أقبل نحو الثلاثة من الطرف الآخر

للدعير جنرال تمساوى اسمه شقراوخ، وكانت مهمته في هيلة
اركان حرب كوتوزوف ان يشرف على تهيئ الجيش الروسى .
وكان في صحبته ضابط القيادة التمساوى الذى وصل في الليلة
السابقة . وكان في الدعير الواسع مساحة من المكان تسمح
للجنرالين بالمرور بجوار الضباط الثلاثة . ولكن زركوف
جذب ذراع نسفمكى إلى الوراء . وصاح بصوت لاهث :

— انهما قادمان ! .. انهما قادمان ! امسحوا الطريق !
امسحوا الطريق !

وتقدم الجنرالان وكلهما رغبة في تجنب هذا التكريم الثقيل
الوطأة . ولكن وجه زركوف الهائل اكتسى نجاة بابتسامة
سرور غامر لا يستطيع كبحه وتقدم خطوة وقال بالالمانية
مخاطبا الجنرال التمساوى :

« باصاحب السعادة ! لى الشرف ان اهتك ! » .

وانحنى وراح يثقل رقبى الأطفال ويحك الارض باحدى
قدميه ثم بالأخرى ! ونظر إليه الجنرال الآخر عضو القيادة
بحرارة . ولكنه رأى جديه الابتسامة البلاء فزر عينيه إلى
اعلى وأظهر الاصعاء له . فاستطرد زركوف :

— لى الشرف ان اهتك ! فالجنرال ماك قد وصل سالما
للمم إلا من جرح يسيرها هنا !

وأشار وهو يبتسم ابتسامة عريضة إلى رأسه فعبس
الجنرال واستدار وانصرف ثم قال بالالمانية بعد عدة خطوات
في غضب شديد :

— رياه ! ياله من احمق !

وضحك نسفمكى وألقى بذراعيه حول الأمير اندريه :
ولكن بولكونسكى ازداد شحوبا ، ونغمه بغضب واستدار إلى
زركوف . لأن الضيق الذى أصابه لرأى ماك ، وأنباء هزيته
وتفكيره فيها سيواجه الجيش الروسى ، وجد له متنفسا
بمناسبة فرحة زركوف . وشرع يقول ونكه الأسفل يرتجف
قليلًا :

— إن كنت يا سيدى تحب ان تكون مهربا . فليس في
مقتورى ان امنك من ذلك . ولكنك إذا تجاسرت على القيام
بدور الاحق في حضورى مرة أخرى ، فساعليك كيف يكون
حسن السلوك !

وأخذ نسفمكى وزركوف لهذا الانفجار مجعلا يحملان
في بولكونسكى . وقال زركوف :

— لم اصنع شيئا إلا اتى هاتهما .

فصاح بولكونسكى وهو يأخذ بذراع نسفمكى ويبتعد :
— لست امزح معك . اسكت من فضلك !

فلم يسع زركوف ان يحير جوابا . وسأل نسفمكى
محاولا نهشته :

— ما المسألة يا فتى العزيز ؟

فوقف بولكونسكى لفرط انفعاله وقال بالفرنسية :
— ما المسألة ؟ يجب ان تدرك أننا إما ان نكون ضباطا
يخدمون قيصرهم وبلادهم ويفرحون لنصر القضية العاية
ويحزنون لاندحارها . وإما ان نكون مرتزقة لا اهتمام لهم
ولا مصلحة في قضية مولاهم . لقد ذبح اربعمسون ألفا وتم

تدمير جيش طفلاننا ، ثم تجد هذا بدعة للضحك . . وقد يسوغ هذا من شخص نافه كالذى صادقته . ولكنه لا يليق بك أنت ! فلا أحد إلا علهان المدارس يمكن أن يجد مسلاة في هذا . .

ولاحظ أن زركوف كان يتف على مسمع منه ، وانتظر ليرى ما يكون رد عازف البوق هذا . لكن عازف البوق استدار وغادر الدهليز .

- ٤ -

وكان لواء بفلو جرادسكى للهوسار معسكرا على مبعده ميلين من براوناو . وكانت الكتيبة التى يقوم فيها نيتولاى روستوف بحمل الراية تأوى إلى قرية ألمانية هى « بلزيبك » وكان قائد الكتيبة هو النقيب دينزوف المعروف فى أوساط الخيالة كلها باسم ناسكا دينزوف قد اختص بأحسن مسكن فى القرية . وكان حامل الراية روستوف يشاركه السكن منذ لحق باللواء فى بولندا . وفى الثامن من أكتوبر . وهو اليوم الذى كانت القيادة كلها قائمة قاعدة لأنباء اندحار ماك - كان روتين الحياة ماضيا على ما هو عليه بين ضباط هذه الكتيبة . دينزوف الذى ظل طول الليل يخسر فى لعب الورق لم يكن قد عاد إلى سكنه بعد عندما ركب روستوف مكررا جدا عاندا من بعثة لاجتماع العلف . وركب روستوف فى بزة حامل الراية إلى الدرج . وظهر بحركة شابة وانتصب قائما فى الركاب كمن لا يريد مفارقة الحصان . وأخيرا وثب إلى الأرض ونادى

« المراسلة » ، وقال للهوسار الذى انتفع إلى الحصان فى لهجة المودة القلبية المرحمة التى يتعامل بها الطبييون مع الجميع ! عندما يكونون سعداء :

- بوندارينكو يا عزيز قلبى ! اجعله يمشى جبهة وذهابا .
- نالجايه الروسى الصغير وهو يهز رأسه فى سرور :
- سمما وطاعة يا صاحب السعادة .
- خذ بالك جيدا . واحسن تهنيئه .

وأمرع هوسار آخر إلى الحصان أيضا . ولكن بوندارينكو كان قد أخذ بزمامه . وكان واضحا أن حامل الراية سضى بالمعطايا ، وأن القيام على خدمته مريح . وربت روستوف على عنق الجواد ثم على كفه وتلكأ واقفا فوق الدرج وقال لنفسه :

- ما أجمله . ولستوف يكون حصانا رائعا !

وابسبم وقبض على سيفه ثم صعد الدرج ركضا وهو يصلصل سهاره . وأطل الألماني الذى كانوا يسكنون بيته من حظيرة البقر مرعبا سترة طويلة بلا كمين وطاقيّة مدببة ويده تشوكة دراس كان يجرف بها الروث . واشترق وجه الألماني بمجرد أن رأى روستوف وغمز مرح مكررا قوله :

- صباح الخير ! صباح الخير !

وكان واضحا أنه سرور بالترحيب بالشباب . فقال روستوف بنفس الابتسامة الأخوية التى كانت لا تفارق وجهه المنحس :

- أبدأت العمل مكررا هكذا ؟ يعيش النمساويون !
- يعيش الروس ! مجدا للإمبراطور الكسندر ! مكررا هذه

العبارات التي كثيرا ما سمع الألماني يقولها : فضحك الألماني وخرج من الحظيرة وخلع طاقبته ولوح بها فوق رأسه هاتفا :

— ويعيش العالم أجمع !

فلوح روستوف بقلنسونه أيضا فوق رأسه وصاح

ضاحكا :

— ومرحى ومجدا للعالم أجمع !

مع انه لم يكن هناك سبب خاص يدعو لزناط الألماني الذي ينظف حظيرته او زناط روستوف الذي كان عائدا من القيون بالملف . إلا أن كلا منهما نظر إلى الآخر بنشوة ومجبة أخويه وهز رأسه اعرابيا عن اعزازهما المتبادل . وافترحا باسعين ، لعاد الألماني إلى حظيرته وعاد روستوف إلى الكوخ الذي يشارك فيه دزينوف . وسأل لفروشكا خادما دزينوف الخاص المعروف للواء كله بأنه وغدا :

— ابن مولاك !!

— لم يعد صاحب السعادة منذ خرج في المساء . ولابد انه ظل يضر طول الليل . فانا اعرف أنه لو كسب لعاد مبكرا إلى البيت ليباهي بحظه الحسن . أما وهو لم يعد في الصباح فهو خاسر . ولسوف يعود ماثجا بالغضب . احضر القهوة ؟ — نعم احضرها .

— ما هو قادم . فلنستعد للتعاب !

فأطل روستوف من النافذة ورأى ديتزوف عائدا إلى البيت . وهو رجل قصير احمر الوجه ، له عينان سوداوان لامعتان وله سالتان وشعر اسود ، وعليه سترة غير مزررة

وينطلقون قصير وعلى مؤخرة رأسه قلنسوة هوسار متكبرة ، يمشي واجها مطرقا . ولما اقترب من الدراج صاح بصوت عال غاضب :

— لافروشكا ! تعال خذ يا غبي !

— حاضر . سأخذه .

وقال ديتزوف وهو يدخل إلى الحجرة لروستوف .

— اصحوت مبكرا هكذا ؟

— منذ وقت طويل . وذهبت لجلب الملف والدريس ورايت الأنسة ماتيلدا !

— حقا ! أما أنا فقد ظللت اضر طول الليل يا ولدي كأي ابن كلب . حظ نحس ! نحس فظيع ! فبجرد أن انصرفت أنت ادبر عنى الحظ . ما هذا ؟ شاي ؟

وغض ديتزوف وجهه كأنه يتنسم فكشف عن أسنانه القمبرة القوية ، وبدأ بامامعه القصيرة يشط للوراء شعره الكثيف الأسود المتداخل كالغابة . وادرف وهو يحك وجهه بيديه :

— ركبني الشيطان فذهبت إلى تلك الغار (كنية احد الضباط) . تصور أنه لم يعطني ورقة واحدة صالحة ! ولا واحدة !

وتناول ديتزوف الفليون المشتمل الذي قدمه له الخادم وراح يبق به الأرض ويصيح :

— وراح يتحدثني في كل الادوار ويدعرنني !

وانتهت حركاته بعمرة الشر من الفليون وكسره ثم رمى

به بعيدا . وسكت فجأة وأخذ يحدق في روستوف بعينه
السوداوين اللامعين وقال :

— وليت كانت هناك نساء ! ولكن لا شيء هنا غير
المشرب . آه ليفا تبدأ القتال سريعا . . عبه ! من هناك ؟

وصاح في اتجاه الباب وقد سمع وقع حذاء غليظ ثقيل
وصليل مهراز يصعد الدرج . وصوت سعله محترمة . وقال
لفروشكا :

— انه الرقيب !

مغض دزينوف وجهه أكثر من ذي قبل وقال وهو يرمى
بكيس فيه بضع قطع ذهبية :

— يا للازعاج ! قم يا روستوف . يا ولدى العزيز ، بعد
ما تبقى وضع الكيس تحت الوسادة . ثم خرج للملاقة الرقيب .
فأخذ روستوف النقود وراح يصنفها ثم أحصاها . وسمع
صوت دنيروف يقول من الحجزة الأخرى :

— صباح الخير يا تليانين ! لقد « نظفوني » الليلة
الماضية .

وأجابه صوت رفيع :

— وابن حدث هذا ؟ عند بيكوف ؟ عند الفار ؟ كنت أعلم
هذا .

ثم دخل إلى الحجرة الملازم تليانين . وهو ضابط قصير
في نفس الكتفية ، فوضع روستوف الكيس تحت الوسادة وهز
اليد الرطبة التي قدمها له تليانين الذي كان لسبب ما قد نقل
من الحرس قبل رحيل اللواء مباشرة . وكان سلوكه في اللواء

حسنا جدا إلا انه لم يكن محبوبا . وروستوف على الخصوص
لم يكن يطيقه ولا يستطيع كتمان نفوره من هذا الضابط الذي
قال :

— وكيف حال « الرخ » ابها الخيال الشاب ؟

وكان الرخ جواد ركوب باعه تليانين لروستوف . ولم
يكن تليانين ينظر أبدا إلى وجه محدته ، فعيناه دائما النفل
من شيء إلى شيء آخر . . وأردف :

— لقد رايتك راكبا هذا الصباح . .

وأجابه روستوف قائلا :

— انه على ما يرام . حصان جيد . . ولكنه بدأ يمرح
بقائمه اليسرى الأمامية .

مع أن الحصان الذي كان قد دفع فيه سبعمائة روبل لم
يكن يساوى نصف هذا المبلغ .

— حامرة قد انشق ! وليس هذا ذا بال . ساريك ماذا
تصنع به .

— أرجوك .

— ساريك فعلا . وليس هذا سرا خفيا . ولكنك سوف
تشرع لى بالمرغان بسبب هذا الجواد .

فقال روستوف يظنها على الخلاص من تليانين . .

— إذن سأخرج وآمر بإحضاره .

وفي الحجرة الخارجية كان دنيروف مقعيا على المتبسة
وبيده غليون في مواجهة الرقيب الذي كان يرنع إليه تقريرا ما .
ولما رأى دنيروف روستوف زر عينيه وأشار بإبهامه من فوق

كثفه إلى الحجرة التي كان جالسا بها تليانين ، ونجهم وهمز
رأسه باشمئزاز ، وقال غير مبالي لوجود الرقيب :

— إنا ! أنا لا أحب هذا الشخص !

نهز روستوف ككتفيه كأنه يقول : « ولا أنا ... ولكن
ما العمل ؟ » وأصدر امره وعاد إلى تليانين ، الذي كان لا يزال
جالسا بالوضع المتراخي الذي تركه فيه روستوف ، وهو يفرك
يديه الصغيرتين . وقال روستوف لنفسه : « ما أكثر الأشكال
القذرة في هذه الدنيا ! » وقال تليانين وهو ينهض قائما بلا
اكتراث :

— هل أصدرت أوامرك لاحتضان الجواد ؟

— نعم .

— تعال أنت أيضا - إنما جئت فقط لأمال دنيوزوف عن

أمر الأمير . هل وصلت الأمر يا دنيوزوف ؟

— ليس بعد ! ولكن إلى أين أنت ذاهب ؟

— ذاهب لأرى هذا الشاب كيف يركب حدوة لحصان .

ونزلا الدرج إلى الاستبل وأراه الملازم كيف يضع العلاج
ثم ذهب إلى مقربه . ولما عاد روستوف كانت هناك زجاجة
نودكا وشيء من المسقى على المنضدة وقد جلس إليها دنيوزوف
وقبله يحدث صريحا على الورق ، ونظر بوجوم إلى وجه
روستوف وقال :

— اني اكتب إليها ..

وانكا بهرقته على المنضدة والقلم في يده ، وهو سعيد
بأن يتقوه بكل ما ينوي كتابته ، ولذا راح يخبر روستوف
بمضمون خطابه . ثم قال :

— ها أنت ذا ترى يا ولدي العزيز اننا نظل في حالة
سبات ، مضورين في التراب والرمال إلى أن نحب . ومنى
أحببت صرت إليها وصرت نيقا كما كنت في أول أيام الخليفة ..
من هذا القادم الآن ؟ أرسله إلى الشيطان ! ليس عندي وقت
يا لامروشكا !

فأقبل لامروشكا غير مهتم بصراخه وقال :

— ومن مساء يكون ؟ أنت طلبت منه الحضور بنفسك .

إنه الرقيب جاء لأخذ النقود .

فقطب دنيوزوف وأوشك أن يصيح بشيء ولكنه لم يتكلم ،
بل قال لنفسه « يا للزجاج » ثم سال روستوف كم من النقود
بقي في الكيس .

— سبع قطع ذهبية جديدة وثلاث قطع قديمة .

فصاح دنيوزوف للامروشكا :

— لماذا أنت واقف هكذا كالصنم ؟ ادخل الرقيب !

فقال روستوف وقد تضرع وجهه بالحيرة :

— أرجوك يا دنيوزوف ، خذ النقود مني . نعمى الكثير .

فزمجر دنيوزوف :

— أنا لا أحب أن أقترض من أصدقائي !

— ولكنك إن لم تأخذ النقود مني كرميل ، أسأت إلى .

فقال دنيوزوف وهو ذاهب إلى فراشه ليأخذ الكيس من
تحت الوسادة :

— لا . لا . أين وضعت الكيس يا روستوف ؟

— تحت الوسادة السفلى !

فرمى دنيزوف الوسادتين على الأرض وهو يقول :

— ولكنه ليس هنا ! لا وجود للكيس . هذا شيء غريب .

مقال روستوف وهو يلتقط الوسادتين واحدة بعد الأخرى ويهزهما « ثم تناول اللحاف وهزه » ولم يجد شيئا :

— انظر لحظة ! اترك اسقطه ! .. انراي نسيت !
ولكني أعرف أنك تحتفظ به دائما تحت رأسك ولذا وضعته
هنا . أين هو ؟

والفتت إلى لفروشكا الذي قال :

— أنا لم ادخل الحجرة . لابد أنه موجود حيث وضعته .

— لكنه ليس موجودا ..

— هكذا أنت دائما تلقى بالأشياء حيثما اتفق ثم تنساها .

انظر في جيوبك !

— لا . أنا اذكر نهاما أين وضعته .

نفقش لفروشكا الفراش كله ونظر تحته ونحت المنفدة .

وراح دنيزوف يرقب حركات لفروشكا في صمت ، ولما رفع
لفروشكا يديه بدهشة معربا عن عدم عبوره على شيء في أي
مكان ، التفت إلى روستوف وقال :

— دع عنك الاعيب غلمان المدارس ..

ولما شعر روستوف بوقع نظرات دنيزوف عليه رفع

عينيه ثم خفضهما واندفع دمه كله إلى وجهه وعينيه . ووجد
مسموعة في أخذ أنفاسه . وقال لفروشكا :



فرمى دنيزوف الوسادتين على الأرض وهو يقول :

— ولكنه ليس هنا ! لا وجود للكيس . هذا شيء غريب ..

— لم يكن بالحجرة أحد غيركما والملازم . فلا بد أن الكيس هنا في مكان ما .

صاح دنيزوف فجاء وقد احتقن وجهه واندفع نحو الخادم متوقفاً :

— يا العمدة الشيطان . اجبح همتك وأبحث عنه . فلا بد من العثور على الكيس وإلا جلدتك ! سأجلدكم جميعاً ! وتحصائست نظرات روستوف دنيزوف ، وشرع بزرر سترته ، ويثبت سيفه ، ويلبس قلنسوته . وهندد دنيزوف وهو يهز المراسلة من كتفيه ويدفع به نحو الحائط :

— أقول لك لا بد من العثور على الكيس .

فقال روستوف متجهاً نحو الباب من غير أن يرفع عينيه :

— دعه وشأنه يا دنيزوف . أنا أعرف من الذي أخذه .

مكف دنيزوف عن خافقه ومكر لحظة وفهم بداهة تلبيح روستوف ، فقبض على ذراعه وقال وهشدر بعنف برزت له مروق رقبته وجبهته كالآوتار :

— كلام فارغ ! لا شك أنك جننت . ولن أسمح بهذا . الكيس هنا . سأسلخ جلد هذا الوغد وسيجد الكيس هنا ! فقال روستوف بصوت يرتعش وهو يتجه إلى الباب :

— أنا أعرف من الذي أخذه .

وصاح دنيزوف مندفعاً نحو حامل الراية لينتقم من الخروج :

— وأنا أقول لك ! ليك أن تتجاسر على هذا . ولكن روستوف حرز ذراعه منه ورفع عينيه ونظر

بهمان وغضب إلى دنيزوف وكأنه عدوه الالد . وقال بصوت يرتجف :

— أتعنى ما أنت قاتل ! لم يكن هناك سوى في الحجرة . فإن لم يكن الأمر كذلك ، لماذا إذن ؟

ولم يستطع أن يتم عبارته ، وجرى خارجاً من الحجرة . وكان آخر ما سمعه روستوف :

— عليك وعلى الجميع اللعنة ! وذهب روستوف إلى مقر تليانين ، حيث قال له المراسلة وقد رأى اضطراب وجهه :

— مولاي ليس بالبيت ، بل ذهب إلى مقر أركان الحرب . أحدث شيء ؟

— لا . لم يحدث شيء ! — إنه قد ذهب لنوه .

وكان مقر هيئة الأركان على مسيرة ميلين ونصف من سلتزيك . ولما كان روستوف لم يجد تليانين في البيت لذا ركب جواده إلى هناك . وكان في القرية التي بها أركان الحرب مطعم يرتاده الضباط . وأمام باب روستوف جواد تليانين . وفي الحجرة الثانية كان الملازم جالسا إلى طبق من السجق وزجاجة نبيذ ، وقال باسم رافعا حاجبيه :

— ها أنت أيضاً قد حضرت أيها الشاب .

وقال روستوف « نعم » وكان هذه الكلمة الواحدة كلفته جهداً جهيداً وجلس إلى أقرب مساندة . ولذا كلاهما بالصمت . وكان هناك المانيان وضابط روسي في هذه الحجرة ،

والكل صامتون . فلم يكن يسمع إلا صوت الشوك والسكاكين على الأطباق وحركة مضغ الملازم للطعام . ولما فرغ تليانين من غدائه أخرج من جيبه كيسا بزدوجا وباعد بأصابعه البيضاء بين الحلقات وأخرج قطعة ذهبية ورفع حاجبيه وقدم النقود للنادل قائلا :

— بسرعة من فضلك !

وكانت القطعة جديدة ، ونهض روستوف وتوجه إلى تليانين وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— دعني أنظر إلى هذا الكيس .

وأعطاه تليانين الكيس وهو زانغ البصر ، إلا أن حاجبيه ما زالَا مرفوعين ، وقال وقد أبيض وجهه :

— أجل إنه كيس بلبح ... في وسعك أن تنظر إليه أيها الشاب .

وتناول روستوف الكيس ونظر فيه وفي النقود التي بداخله ، ثم إلى تليانين . وتلفت الملازم حوله كعادته ، وبدا عليه المرح الشديد فجأة وقال :

— لو ذهبنا إلى فيينا فستارك كل ما فيه هناك . أما الآن فليس في هذا المكان النقص ما اتفق فيه نقودنا . والآن أعطني أيها الشاب ، فأنا مضرب .

ولم يفلح روستوف . فاستطرد تليانين :

— ماذا تنوي أن تصنع ؟ اتناول أنت أيضا غداك !

أنهم يقدمون طعاما جيدا . أعطني !

وبدأ يده ويقبض على الكيس ، فاعلته روستوف « وأخذه تليانين وبدأ يدمسه بدمه أكثرا في جيب سروال ركوبه ، وهو

رافع حاجبيه وفتح فيه قليلا كمن يريد أن يقول : « أجل إنني أضع كبس في جيبى . وهذا أمر غلية في البساطة ، ولا شأن لأي أحد به » ثم قال وهو ينتهد ويريق من تحت حاجبيه المرفوعين عيني روستوف ، فمرت شرارة كهربية بين عين تليانين وعين روستوف جئنة وذهابا في آن واحد :

— ثم ماذا أيها الشاب !

فقال روستوف وهو يتناول ذراع تليانين ويكاد يجره إلى النافذة هليسا في أفئه :

— تمال هنا ! هذه نقود نيزوف ! أنت أخذتها !

— ماذا ! ماذا ! ... كيف تجسر ؟ ...

ولكن كلماته رنت كالأتين أو ضراعة الصفح اليائسة . وما أن سمع روستوف صوته حتى انزاحت صفرة عن صدره وشعر بالمرور ولكنه في الوقت نفسه رثى لهذا المنكود الواقف أمامه . ولكن تحتم عليه أن يضي في الأمر إلى نهايته . وهبهم تليانين وهو يتجه إلى حجرة خالية :

— انه أعلم ماذا يمكن أن يظن الناس ! لا بد لك أن تفهم كلامك ...

— اعرف هذا . وسأقدم لك الحليل .

فبدأ وجه تليانين يرتجف في كل عضلة منه ، وعيناه ما زالتا تتحركان بقلق مصوبتين إلى الأرض ولا ترتفعان أبدا إلى مستوى وجه روستوف . وارتفعت شهقاته وقال :

— أرجوك يا كونت ! لا تدبر شباه ... ها هي النقود

الدمية . خذها . والداي شيخان !

ورمى الكيس على المقدمة فتناوله روستوف متحاشيا
عيني تليانين ، ومن غير أن يتفوه بكلمة غادر الحجرة . ولكنه
وقف عند الباب واستدار إليه وقال والعمود في عينيه :

— يا إلهي ! كيف أمكك أن تمنع هذا !

فقال تليانين وهو يقترب من حامل الراية :

— يا كونت !

فقال روستوف متراجعا :

— لا تلمسني ! .. وإن كنت بحاجة إلى النقود خذها !

والتى إليه بالكيس وجرى إلى خارج المطعم .



وفي مساء نفس هذا اليوم نشبت مناقشة حامية في
مسكن دنيزوف بين بعض ضباط الكتبية ، فقد كان نقيب أركان
الحرب الطويل يقول مخاطبا روستوف الذي احتقن وجهه :

— ولكي أقول لك ياروستوف أنك ينبغي أن تقدم
اعتذارك للكولونيل !

ونقيب أركان الحرب كيرستن له شعر أشيب ومالفتان
ضخمتان ولامع غليظة ووجه متخضن ، وقد سبق تنزيل رتبته
إلى جندي مرتين لأسباب تتعلق بالشرف ، ثم رد اعتباره
مرتين وصاح روستوف :

— أنا لا أسمع لأي أحد أن يقول أنني كاذب ! لقد قال لي
أنني كذاب فقلت له بل أنت كذاب . وبهذا يفتنى الموضوع .

وله أن يكلفني بالنوبة يوميا ، بل ويمكنه أن يقبض على ، ولكن
ليس بوسع أحد أن يرغمني على الاعتذار ، لأنه إذا كان وهو
الكولونيل يرى ما لا يليق به أن يقرضني ... فقاطعه نقيب
أركان الحرب بصوته العريض وهو يربت سالفتيه الطويلتين
بهذه :

— رويدك لحظة يا صاحبي العزيز ، واسمحي لي . أنت

قلت للكولونيل في حضور ضباط آخرين أن ضابطا قد سرق ...

— لست الموم لأن الحديث جرى في حضور ضباط
آخرين .. ولعلني كان ينبغي ألا أتكلم أمامهم .. ولكنني لست
دبلوماسيا . وهذا هو سبب انضمامي للهوسار ، فقد ظننت
أنني لست مطالبا هنا بهذه الاعتبارات الشكلية ، وهو قال
لي أنني كذاب ... فليقدم لي الترضية !

— هذا كله بديع جدا ، ولا أحد بتخيل أنك جبان ، ولكن
ليس هذا هو لب الموضوع . واسأل دنيزوف أمن المقبول
من حامل راية أن يطلب الترضية من كولونيل !

وكان دنيزوف بعض على شأبه في اكتئاب وهو يصفي
للنناقشة ، وواضح أنه لا رغبة لديه في إدلاء دلوه فيها ، ولذا
رد على سؤال النقيب بهزة رأس سلبية ، واستطرد النقيب :

— أنت كلمت الكولونيل في هذا الموضوع القذر في
حضور ضباط آخرين ولذا زجرك بوجودانتش .

وبوجودانتش هو اسم الكولونيل . فرد روستوف قائلا :

— ثم يزجرني . بل قال أنني كذاب !

— تايما . وانت قلت له لفوا ، ويجب ان تمتنر ...

نصاح روستوف :

— بالقطع !

نقال نقيب اركان الحرب بجديّة ومرامة :

— ما كنت لاتوقع منك هذا . انت لم تخطيء في حقّه هو
نقط ، بل في حق اللواء كله ، وكلنا نلومك بالاجماع . اسمع !
لو انك فكرت في الامر واستشرت أحدا في التصرف اللائق .
لما ذهبت وارتيكت هذه الجليطة كلها أمام الضابط . وماذا كان
بوسع الكولونيل عندئذ ان يصنع ؟ اكان يحاكم ذلك الضابط
ويصم بالخزى لواعنا بأسره ! وهل يتحمل اللواء كله ذلك
الخزى بسبب وغد واحد ! انقل هذا ما كان يجب عليه عمله .
ليس هذا رأينا . وقد احسن بوجودائش التصرف ، فقال لك
إن ما قلته غير صحيح . وهذا غير مستحب . ولكن ماذا كان
بوسعه ان يعمل ؟ لقد جلبت أنت هذا على نفسك . وما انت
حين بريئون تسوية الأمر نستعلى وتتكبر وترفض ان تمتنر ،
ونريد للموضوع كله ان يفتضح . وماذا يضيرك ان تمتنر
لضابط قديم بمجل ؟ وايا كان من أمر بوجودائش فهو على كل
حال كولونيل قديم بمجل وشهم . انت مستعاه لما قيل لك ،
ولكنك لا تبالى بخزى يلحق باللواء !

وبدا صوت نقيب اركان الحرب يرتجف وهو يقول :

— إنك لم تكذ تخطى اى مدة في اللواء ، وإن كنت هنا
اليوم ، فغدا ربما نقلت معاوننا في موضع آخر ، ولست تبالى

البقة ان يقول الناس : * في لواء بانفلوجراد لموص * أما نحن
تنبألى بهذا . اليس كذلك يا دنيزوف ؟ ألسنا تنبألى ؟

ولم ينبس دنيزوف ولم يتحرك ، وكانت عيناه اللامعتان
ترمقان روستوف بين حين وآخر . واستطرد نقيب اركان
الحرب :

— كبرياؤك عزيزة عليك ، ولذا لا نريد ان تمتنر . أما
نحن المسكين فنشأنا في هذا اللواء ، وبإذن الله نرجو أن نبوء
فيه « نشرف اللواء هو العزيز علينا . وبوجدانوفتش يعلم
هذا . اى والله شرف اللواء عزيز علينا ! لست على حق ،
ولك ان تستاء ، ولكنى اقول الحق الصراح دائما ! ليس هذا
موايا !

ونهمز نقيب اركان واستدار مبتعدا عن روستوف .
وصاح دنيزوف وقد وثب واقفا :

— هذا حق ! اسمع يا روستوف وتمقل !

فاحتقن وجه روستوف ثم أبيض ونقل بصره بين
الضابطين وقال :

— لا بإسادة . لا ... ينبغي الا تظنوا هذا ... فأننا
انهم الموقف تايما ... لا يسيئوا بى الظن ، فأننا مستعد ...
من أجل شرف اللواء ... ولكن لم الكلام ؟ ... سأبرهن على
هذا بالأعمال . فنشرف الراية ... ليكن ... أنا الموم !
(وطلعت الدموع إلى عينيه) أنا المخطيء على طول الخط .
وماذا تريدان أكثر من هذا ؟

نصاح نقيب الأركان ، وشهد استدار وخبط على كتفه بيده الضخمة :

— هذا هو الصواب يا كونت !

وصاح دنيزوف :

— ألم أقل لك ؟ أنه نقي رائع !

وعاد النقيب يخاطبه بلقبه اعترافا بجياله :

— هذا انفسل يا كونت ! اذهب واعتذر يا صاحب الممادة !

فاحتج روسلوف بصوت متوسل :

— إني مستعد أن أصنع أي شيء ، ولن يسمح مني احد كلمة واحدة . ولكني وايم الله لا أستطيع أن اعتذر . ولا يمكنني أن أقول ما أردت ! كيف اعتذر كفسلام صغير يلتبس الصنع !

وضحك دنيزوف . وقال كيرستن :

— سيكون وبالا عليك الا تعتذر ، يوجدانوفتش لا ينسى شيئا ، وسيجعلك تدفع ثمن عنادك غاليا .

— والله ما هو بعناد ! ولست استطيع وصف الشعور الذي ينتابني .

فقال نقيب الأركان :

— كما تحب . . .

وسأل دنيزوف :

— ماذا منع الوغد بنفسه ؟

— ابلغ انه مريض . وقد صدر الأمر بشطبه غدا .

فقال نقيب الأركان :

— حالة مرضية ! ولا تفسير آخر للأمر .

نصاح دنيزوف بتعطش للدماء :

— سواء أكان الأمر مرضا أو لم يكن ، فخير له الا يطا

عنتي . وإلا قتلته !

ودخل زركوف الحجرة . وصاح الضباط في نفس واحد

في وجه القادم :

— كيف وصلت إلى هنا ؟

— إلى الجبهة أيها المباد ! لقد استسلم ماك بجيشه

كله !

— هراء !

— لقد رأيته بنفسى !

— ماذا ؟ رأيت ماك حيا بفراعيه ورجليه ؟

— إلى الجبهة ! إلى الجبهة ! اعطه زجاجة لقاء هذا

التيا . كيف جئت إلى هنا ؟

— لقد فصلوني من هيئة الأركان العامة واعدوني إلى

اللواء بسبب ذلك الشيطان ماك . فقد تسكنني الجنرال

التساوي ، لأني هناك على وصول ماك . . . ماذا بك

ياروسلوف ؟ تبدو كما لو كنت خارجا لتوك من حمام ساخن !

- لقد كنا في ورطة هذين اليومين . يا غفای العزيز .
 ودخل معاون اللواء وأكد الأنباء التي جاء بها زركوف .
 فالأوامر تقضى بإبتداء السير في اليوم التالي .
 — إلى الجبهة أيها السادة .
 — الحمد لله ! لقد ظللنا مغرورين هنا أطول مما ينبغي .

- ٦ -

أوتد كوتوزوف إلى فيينا ، مدبراً وراءه الجسور
 التي على نهر إن في براوناو ، وعلى نهر فراون اقرب لينز .
 وفي ٢٣ أكتوبر عبرت القوات الروسية نهر اينز . ففي منتصف
 ذلك النهار كانت عربات الحفائط والمخيمية وطواير القوات
 تتقدم في خط طويل عبر مدينة « اينز » على كلا جانبي الجسر .
 وكان النهار دافئاً خريفيًا ومسطراً . وكان المنظر الرحب الذي
 يفتح من المرتفعات التي ترضى عندها البطاريات الروسية
 لحراسة الجسر يضيق أحياناً بسبب المطر المسائل الذي كأنه
 ستر من الموشلين ثم يتسع مرة أخرى فيمكن في ضوء الشمس
 المساطع رؤية الأشياء عن بعد في وضوح وكأنها مقطوعة ببطقة
 من الطلاء اللامع . وترى المدينة الصغيرة أسفل المرتفعات
 بيوتها الصغيرة وسقوفها الحمراء وكاتدرائيتها وجسرها
 الذي تتدفق على جانبيه القوات الروسية محتشدة مما .
 وعند منحني الدانوب ترى السفن والجزيرة وقلعة ذات حديدة
 ملوكة بمياه نهر اينز وهي تصب في الدانوب . وتسلط

الدانوب المنحدر تغطيه أشجار الصنوبر بمساحة من قمم
 الأشجار الخضراء والأكاليد المثلثة للزرقاة . ووراء أشجار
 الصنوبر التي تبدو بوية لم تمسها يد البشر تبرز أبراج صغيرة
 لخبر للراهبيات ، وعلى بعدة في المقدمة على التل الذي في
 الجانب القصى لنهر اينز تمكن مشاهدة داوريات العدو .

وبين المدافع على المرتفع وقف الجنرال قائد المؤخرة
 وأحد ضباط الحاشية يتحصن المنطقة بمنظار الميدان .
 وخلفهما بظيل جلس نسفتسكى على جذع مدفع ، وكان القائد
 العام قد بعث به إلى المؤخرة . وكان القوزاق الذي يصحب
 نسفتسكى قد ناوله جرينديبة وقارورة « فراح نسفتسكى
 يتحف الضباط بالنطائر والحلوى ، فاحاطوا به في حلقة مريحة ،
 بعضهم راكعين وبعضهم جالسين يتربص الأرجل كالآتراك ،
 على المشب الندي . وقال نسفتسكى :

— أجل . كان ذلك الأمر النمساوي على صواب عندها
 بنى قلعة هنا . فهي بقعة بديعة . لماذا لا ناكلون أيها السادة ؟
 وأجابه أحد الضباط مستنهما بفرصة الحديث مع عضو
 في أركان الحرب له هذه الأهلية :

— شكراً جزيلاً لك يا أمير ! إنها فعلاً بقعة جبيلة ، وكان
 سيرنا بجوار الحديقة مباشرة وراينا فيها غزلتين وداراً ضخمة
 جداً .

وقال آخر فاق إلى أخذ مطيرة أخرى ، وإكمه خجل
 متظاهر بالنظر إلى الريفات

— انظر يا امير . ها هي مثلنا قد وصلت إلى هناك :
ترب المرج خلف القرية . وهامم ثلاثة منهم بجرون شيئا ،
إخالمهم « سيشطبون » على ذلك القصر تها !

وكانت لهجته تنم على الموافقة النابتة . فقال نسفتسكى
وهو يبيض نظيرة في منه الرطب الوسيم :

— بلاريب ! . ولكن ما اتناء هو التسبل إلى داخل
هذا . . .

وأشار إلى دير الراهبات ذى الأبراج الصغيرة الذى
يشاهد على سفح التل ، وابتمسم وقد ضاقت عيناه ولحنا .
واردف :

— أجل . كم يكون هذا بقعة من الطراز الاول يا سادة !
وضحك الضباط .

— سيتاح لى على الأقل ان اروع الراهبات قليلا ، ويقال
ان بينهن فتيات إيطاليات . وأنا مستعد بشرى ان انزل عن
خمس أعوام من عمرى فى مقابل هذا !

وقال ضابط أجرا من الباقين وهو يضحك :

— ولابد انهن يشمرن بالسامة أيضا !

وفى هذه الاثناء اشار ضابط الحاشية الذى كان واقفا
فى المقربة بنبها الجنرال إلى شيء ما ، فنظر الجنرال بمنظار
الميدان وقال بفضب وهو يرمع منظر الميدان عن عبته ويهز
كتفيه :

— أجل . الامر كذلك . فهم سيطلقون النار عليهم عند
عبور النهر ، فلماذا يتقاعدسون هكذا ؟

ولو نظسر المرء بالعين المجردة فى ذلك الاتجاه لتبين
الاعداء ويطاريانهم التى كان يتصاعد منها دخان ابيض كاللبن .
واعقب الدخان صوت طلقة عن بعد ، وكانت تواتنا بلا ريب
تسارع إلى مكان العبور ، فنهض نسفتسكى وهو ينفث الدخان
وتوجه إلى الجنرال ياسا :

— أفلا تحب يا صاحب السمادة ان تتناول لقمة غداء ؟
وقال الجنرال من غير ان يرد عليه :

— ما أصوا هذا . رجائنا كانوا فى منتهى البطء .

فقال نسفتسكى :

— أفلا أركب إليهم يا صاحب السمادة ؟

فقال الجنرال مكررا امرا سبق اصداره بالتفصيل :

— نعم أركب إليهم من فضلك وبلغهم ان على فرمان
الهوسار العبور فى النهاية وان يدمروا الجسر كما ارسلت
إليهم من قبل . ويجب ان يكسوا مواد الاهتراق على الجسر
بمنابة .

— وهو كذلك !

ونادى نسفتسكى القوزاق سائس جواده ، وأمره ان
يحمل الجربنتية والقارورة . ووشب بجسمه الثقيل بخفة فوق
المرج . وقال ياسا للضباط الذين كانوا يرقبونهم :

— واهم الحق انى ذاهب الآن لزيارة الراهبات .

وأنطلق فى الدرب المتعرج نازلا الجبل . والتفت الجنرال
إلى ضابط المدفعية :

— والآن ايها النقيب جرب مدى القذائف . لعل هذا
يسلبنا لقطع الوقت .

وصاح الضابط : فأسرع المدفعية يجرون بهرج تاركين
نيران المسكر وحشوا مدافعهم الكبيرة . وسعوا نداء الأمر :
« واحد ! » فانطلق المدفع بصوت معدنى يسم الاذان ومرت
القذيفة وهي تصغر فوق رموس رجالنا تحت المسفع . ثم
سقطت قبل موضع العدو بمسافة كبيرة وانفجرت . وكانت
وجوه الجنود والضباط قد اشرفت عند سماع الصوت : فنهض
الكل وراحوا يرقبون باهتمام حركات قواتنا اسلهم في وحدة
من الأرض ، وحركات العدو الذى يتقدم . وفي هذه اللحظة
بزغت الشمس ساطعة من وراء السحب . وسرى في هذا
الاشراق المرح والخفة .

— V —

وكانت قذيفتان من قذائف العدو قد طارت من قبل فوق
الجسر ، وصار هناك تراحم عليه . وفي وسط الجسر وقف
نفسنكى بعد أن ترجل عن جواده وظهره إلى السياج ،
وراح ينظر باسما إلى قوزاقه الذى كان واقفا وراءه يضع
خطوات ممسكا الجوادين من لجايبهما . وكلما هم نفسنكى
بالنتهم تدفقت عليه الجنود والمريبات الزاحفة وودته إلى
السياج ، فلم يكن أمامه الا الإبتسام !

وقال القوزاق لجندى يشق لمريته المحملة طريقا بين
جنود المشاة الذين يضطون على عجلاته وخيوله :

— أنت هناك يا ولدى ! ماذا تصنع ! انتظر قليلا فما
أنت ترى الجنرال يريد المرور .

ولكن جندى القافلة لم يابه لاشارته إلى الجنرال وصاح
بالجنود الذين يسعون الطريق :

— هيه يا رفاق ! الزهوا اليسار ! انتظروا قليلا ...
ولكن الرفاق ظلوا يتقدمون فوق الجسر كفتا إلى كفت
ورماحهم مشرعة ببنادقهم . وكانهم كتلة مثرامة . واطل
الأمر نفسنكى من فوق السياج فرأى أمواج نهر « إنس » مسخبة
سريعة ولكنها غير عالية ، تدور في دوامات حول دعائم
الجسر ، وتتدافع مع التيار . ونظر فوق الجسر فرأى أمواج
الجنود الحبة متشابهة تماما في تنققها ، كلها عسكرة عن
قلنسوات عليها اعطية . وجريديات ورماح وينادق طويلة .
وثعت القلنسوات وجوه مريضة الفك . ووجنت غائرة ،
ونظرات قلق . وارجل تتحرك فوق الواح الجسر المغطاة بطين
لزوج . وأحيانا يشق ضابط طريقه عنوة ملقنا بصعاء ، وبوجه
من نمط مختلف عن وجوه الجنود . فيلوح كهلال من الزبد فوق
أمواج نهر إنس . وأحيانا يمر على الجسر بين أمواج جنود
المشاة فارس هوسار مترجل او مراسلة او أحد سكان المدينة
وأحيانا تمر كالكتلة العائمة على صفحة النهر عربة امتمعة
مكسدة ومغطاة باغطية من الجلد . وقال القوزاق في يأس :

— أنهم أشبه بنهر فاض على جانبيه . اهناك كثيرون
غيرهم هناك !

فقال جندي مرح مؤرق الشرة وهو يغمز بعينه :
— بلبون ، الا واحد !

وتبعه جندي آخر اكبر منه سنا فقال بذعر مخاطبا زميله :
— لو انه (يعنى العدو) بدأ يقصف الجسر الآن فسوف
ننسى ان تهرس !

وتلاه جندي آخر راكبا عربة ، وقال احد المراسلات
وهو يجرى وراء العربة ينقبى في مؤخرتها :
— اين بحق الشيطان دبست اربطة الارجل ؟

ثم مر بعض الجنود وقد بدا عليهم اثر الشراب ، وقال
احدهم يمرح وهو يلوح بذراعه :

— ونهض ، وبمؤخرة بندقيته ضربه بعنف على اسنانه !
واجاب آخر وهو يقهقه :
— كم كان نخذ الخزير لذيذا .

ولم يستطع نسفتسكى ان يعرف من الذى تلقى الضربة
على اسنانه ، ولما هى علاقة لحم الخزير بهذا كله ! وقال
صف ضابط يقضب وتوبيخ :

— هم يتمجلون الآن ، نمسديا يطلق العدو دفعة من
الرصاص اليارد ، يخال المرء انهم جبيما قد قتلوا .
وقال جندي شاب ذو قم واسع لا يكاد يمسك نفسه من
الضحك وهو كالمتماعى بذعره :

— عنديا ازت الرصاصة بجوارى با عى ذهلت . الم
يكن بحق لى ان افزع !

ومن بعد ، مرت عربة لا تشبه كل ما مر من قبل ، نهى
عربة المانية ذات حصانين ، محملة فيها ييدو بكل امتعة
اعضاء اسرة . وكان المانى يقود الحصانين ، ومن وراء العربة
بقرة جميلة رمادية مخططة ذات ضرع ضخم ، ومسوق حشايها
الفراش المكسدة جلست امرأة معها طفل صغير وامرأة عجوز
وفتاة المانية جميلة وردية الخدين . وواضح انهم من اهل الريف
المهجرين ، وقد سمح لهم بالمرور بموجب تصريح خاص .
وكانت عيون جميع الجنود على النساء ، وكلما تقدمت العربة
خطوة كانت تعليقات الجنود كلها منصبة على المراتين . وقد
علت نفس الابتسامة جميع الوجوه تقريبا ، مغيرة عن افكارهم
السيئة نحو النساء :

— هيه ! المسجى ينحرك مبتعدا عنا . . .

وقال جندي آخر مخاطبا الالماني الذى ظل مخفيا بصره
في حق وارتياح :

— هلا بعت لنا زوجتك ! ؟

وقال آخرون :

— انظروا كيف تبرجت ! ايها الشياطين !

— الا تحب ان تاوى لعينهم يا فيدونوف ؟

— انا اعرف بضعة امور يا دفعة !

وسأل ضابط البيادة الذى كان ياكل نقاعة وهو يبتسم
ايضا ويحلق في الفتاة الحناء :

— اين انتم ذاهبون !

فاغلق الالماني عينيه علامة على انه لم يفهم .

نقال الضابط وهو يقدم للفئة تفاع :
 — خذها إن أحببت .

فانقسمت الفئة واخذتها . وكان نسفتسكى — كثيره
 من على الجسر — لم يحول عينيه قط عن النساء إلى أن
 ابتعدن . واعتب تلك العربة تيار الجند ، بنفس الإحاديث .
 ثم حدث توقف . ذلك أن الخيول في قائمة العربات هزنت عند
 نهاية الجسر ، فكان على الحشد كله أن ينتظر . وتماثلت
 أصوات الجنود متساثلين « فيم هذا التوقف ؟ لقد اختل
 النظام . لماذا تدفعني هكذا ؟ اليس بوسمك الانتظار طيلا ؟
 الوليل لنا لو ائطل المدو النار في الجسر الآن ! » .

وقال الجنود في مواضع كثيرة من الحشد « وهم يتلفتون
 حولهم ويواصلون الضغط إلى الأمام :

— انظروا ! ها هو ضابط مزنوق أيضا !

ونظر نسفتسكى إلى مياه نهر « إنس » تحت الجسر ،
 وسمع نجاة صوتا جديدا عليه . صوت شيء يقترب منه . شيء
 كبير . ثم صوت ارتطامه بالماء . وقال جندي قريب منه متلفتا
 إلى الصوت :

— انظروا إلى أين تصل قذيفتهم !

نقال آخر يلقى :

— أنهم يشجعوننا على التحرك بسرعة :

وتحرك الحشد ، وأدرك نسفتسكى أنها قذيفة مضغ

نقال :

— يا توزاق ! اعطنى جوادى . والآن نفع جانبنا ! نفع
 جانبنا ! انسحوا الطريق !

وبجهد جهيد افلح في الوصول إلى جواده ، وتقدم على
 مسهوته وهو لا يكف عن الصياح . فتضاغط الجنود ليشقوا له
 طريقا . ولكنهم تكسبوا عليه ثانية ممصروا مساقه . ولم
 يكن اقرب الجنود منه هم الملاون ، لأنهم كانوا مدفوعين من
 الخلف بيزيد من العنف . وسمع صوتا أحسن يصيح من خلفه
 في تلك اللحظة :

— نسفتسكى ! نسفتسكى ! يا صاحبي العزيز .

والفتت إلى الوراء فرأى على مبعدة خمس عشرة خطوة
 من كل جنود البيادة وجه ناسكا دنيزوف الأحمر والأسود
 المشعث ، وعليه قلنسوة اللباد في مؤخرة رأسه ومحفط طويل
 يلقى على كتفه . وهو دنيزوف الذى كان مستقارا جدا
 ولاريب :

— قل لهؤلاء الشياطين الملاعين أن يمسحوا الطريق !
 وجملت ميناء السوداوان كالنحم تليمان وتدوران «
 وتقدحان الشرر ، وهو يطوح سيفا مسلطا بيده العارية التى
 تضاهى عنقه في الأحمراز . واجابه نسفتسكى بحبور :

— أه . فاسكا ! ولكن ما هذا الذى تفعل ؟

فهدر ناسكا دنيزوف بكثرا من أسنانه البيضاء ،
 وهابزا جواده « البدوى » الأصيل ، الذى جعل يحرك أفنيه
 ويمهل ويثقف بالزبد من شكيمته « ولحوافره صاملة فوق
 الواح الجسر ، وبدأ كما لو كان يهم بالقفز فوق السياج

لو سمح له راكبه بهذا . وهدر دنيوزوف ملوحاً بسيفه المجرى
من غمده :

— وماذا بعد ! كالأغنام تهايا .. ! إلى الورا ..
انفسحوا الطريق ! تقوا هناك ... اذهبوا بالعربة إلى
الشیطان . ساقطكم أرباً بسمفى !

وتضاغط الجنود بوجوه مذمورة ، ولحق دنيوزوف
بنفسكى الذى قال له :

— كيف بالك لا أجذك مخموراً اليوم ؟

— أنهم لم يفسحوا لنا وقتاً للشراب ! بل ظلوا يجررون
اللواء جبئةً وذهاباً طول النهار . والقنقال لا يأس به على
الاطلاق . ولكن أى شيء هذا بحق الشيطان !

فنظر نيفتسكى إلى معطفه الجديد وفراء سرجه وقتل :
— ما أشد أناقتك اليوم !

فلبسهم دنيوزوف واستخرج من حباله سيفه متديلاً نفوح
منه رائحة المطر ، ووضعها على أنف نيفتسكى وقال :

— أنا ذاهب إلى العمليات ! ولذا خلقت دنقى ونظفت
أسنانى وتعطرت !

وبفضل قامة نيفتسكى المهيبة . وبرفقته قوراته .
وبفضل تصميم دنيوزوف وتلويحه بسيفه وصياحه اليائس ،
امكن وقت تدفق البيادة ووصلوا إلى الطرف الآخر للجسر .
وعند المدخل قابل نيفتسكى الكولونل الذى عليه أن يسلمه
القيادة ، وإذ فرغ من مهمته ركب راجعاً . أما دنيوزوف فوقف
عند مدخل الجسر مستوقفاً جواده الذى كان يصهل راغباً في أن



أما دنيوزوف فوقف عند مدخل الجسر مستوقفاً جواده ..

ينضم إلى رفاته ، وهو يدق الأرض بجوافره ، وجعل ينظر إلى الكتيبة التي تتقدم نحوه . وكان وقع حوافر الخيل على الواج الجسر اشيء بصوت عدة خيول تركض ، وأخذت الكتيبة يتقدمها الضباط تتقدم في طابور رباعي عبر الجسر وشرعت تبرز على الضفة الأخرى .

وكان جنود البيادة الذين أجبروا على التوقف محتشدين في الطين في منتصف الجسر . وراحوا ينظرون إلى فرسان الهوسار الضملاء الأنثيين وهم يبرون بهم في نظام حسن . وعلى وجوههم ذلك التباعد السخر الذي تكفه فروع الجيش المختلفة لبعضها البعض ، وقال الجند :

— ما أشد اناقتهم !

— وينفعنهم كبيرة ! انهم للمرض نقط !

وقال احد الهوسار مازحا ، وقد طفر جواده فالتقى رشاشا من الطين على جندى مشاة :

— انت يا بيادة ! لانتز الضبار !

فقال جندى البيادة وهو يسبح الطين عن وجهه بكه :

— أحب أن أراك بعد زحني طويلين ، والجربندية فوق كتك ، وكيف تنكسر زركشات سقرتك . ولكنك جاثم هكذا اقرب إلى الطائر منك إلى الإنسان !

فقال مريف لجندى فحيل انحنى ظهره تحت الجربندية :

— الا تحب أن تجثم فوق حصان يا زيكين ؟ ما ابهك

عندئذ من فارس !

وقال الهوسار :

— ضع عصا بين رجليك ، يكن لك حصان يناسبك !

- ٨ -

تضاعفت قوات البيادة على شكل قمع عند مدخل الجسر ، وبسرعة زحفت عبره . وأخيرا انتهت كل عربات الامتعة المعبورة ، وقل الزحام ، وتقدمت الكتيبة الأخيرة إلى الجسر ، وكانت سرية الهوسار التي بها دنيزوف باقية على الجانب الأقصى للنهر في مواجهة العدو الذي كان يري عن بعد من الجبل المقابل ولكن لا تمكن رؤيته من الجسر المنخفض ، ولا من الوادى الذي يخترقه النهر ، فالامق محدود بأرض مرتفعة لا تبعد أكثر من نصف ميل . وفي المقدمة سهل أجرد تفتتت فيه حفنات من دوريات القوزاق . ونجاة ، على الطريق الصاعد إلى الأرض المرتفعة المقابلة برزت للعيان قوات عليها سقرات زرقاء ونصحبها المدفعية . انهم الفرسيون ! وامرر كشافة القوزاق بالركض هابطين التل . ومع أن الضباط ورجال سرية دنيزوف حاولوا الكلام في امور أخرى والنظر في اتجاهات مختلفة . إلا أن تفكيرهم كله كان منصبا طول الوقت إلى ما يجري فوق التل . وظلوا ينظرون باستمرار نحو البقع السوداء التي راوها تبرز للعيان على خط الأفق ، وعرفوا فيها قوات العدو . وكان الجو قد صفا بحد الظهر وبدأت الشمس تسطح وهي جانعة إلى الغروب على الدانوب والجيال المعنمة التي تحدى به . وكان الهواء ساكنا ، ومن جانب التل ترامت في الحين بمد الحين أصوات البوري وصيحت العدو . لم يكن بين السرية والمسدو أحد الآن إلا بعض الكشافة . وسهل حال عرضه حوالي ٦٠٠ ياردة

يفصل بينهم وبين قوات العدو الذي كان قد توقف عن إطلاق النار ، مما زاد من وطأة الأحساس بخطورة التهديد القادم من هذه المسافة التي هي الحد الفاصل بين الجيشين المتناجزين .
وشعر كل رجل — ولو بغير تفكير واع بفصل — عند مראى العدو « ان خطوة واحدة عبر هذا الخط هي الفاصل بين الحياة والاهوال المجهولة والموت . وماذا هناك ؟ ومن هناك ؟ هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة والسقوف التي تنسكب عليها اشعة الشمس ؟ لا احد يدري . والمراء يتوق إلى معرفة ذلك كله ولكنه يخشى اجتياز هذا الخط ، وفي الوقت نفسه يتوق إلى عبوره ويعلم انه لابد له إن عاجلا أو آجلا ان يخترقه ويعرف ماذا على الجانب الآخر منه . كما انه من المحتم على المراء ان يكتشف ما الذي على الجانب الآخر من الموت . ومع هذا يشعر المراء انه قوي بما في متهيج ويستثار الاعصاب » .
ويضئ هذا الشعور حدة من تسوع خاص واشراقا على كل الانطباعات التي تتفق له في هذه اللحظات .

وعلى الأرض المرتفعة التي يحتلها العدو تصاعد دخان طلقة ، ومزقت قذيفة بدمع فوق رموس السرية من الهوسار . وتفرق الضباط الذين كانوا واقفين مما في اتجاهات شتى . وبدأ الهوسار يتراجعون بخيولهم ويمسكون بها . وساد السرية كل الصمت . وكان كل الرجال ينظرون إلى العدو امامهم وإلى قائد السرية متوقفين صدور أمر . ومزقت بجوارهم قذيفة مدمجة أخرى ، ثم ثالثة . ولم بعد هناك شك في انهم يصوبون إلى الهوسار ولكن القذائف المنتظية السريعة طارت نسوق روعس الهوسار وارتطمت بالأرض وراءهم . ولم ينظروا

الهوسار وراءهم ، ولكنهم كانوا ينهضون مع كل صوت قذيفة قاتمين في ركبهم كأنها تلتقوا الأمر بذلك . قاتمين انفسهم أثناء مروق القذائف وازيزها ثم مسترخين ثانية . اجل لم يلتفتوا وراءهم ولكنهم كانوا ينظرون بأطراف عيونهم ليرى كل منهم وقع ما يحدث على رفاقه . وكانت تطلو جميع الوجوه — يدا بنيزوف ونزولا إلى نامخ البوق — غصون متوترة حول الفم والذقن تدل على الصراع الداخلي . وقطب الرقيب ، وهو يتفحص الجنود علوا وسفلا ، كأنها يقوعدهم بالمقاب . وكان حامل الراية ميرونوف يخوم مع مرور كل قذيفة . وعلى الجناح اليسر كان روستوف على صهوة الرخ — وهو حيوان بديع رغم اعتقال قوائمه . تبدو عليه سيما التلميذ السعيد الذي استدعى لاداء امتحان أمام جمهور عريض وهو واثق بقدرته على التفوق . لذا كان ينظر بهدوء وتائق إلى كل شخص وكأنه يدمو الجميع للشهادة ببلوغ عدم ميلاته أثناء انطلاق النيران . ومع هذا دب في وجهه ايضا رغم إرادته رجة حول الفم تشي بمنف مشاعره .

وهذر ديزوف الذي لم يستطع البقاء في مكان واحد ، بل راح يركض بجواده جيئة وذهابا أمام السرية :

— من الذي يقطس ويقب هناك ؟ حامل الراية ميرونوف ؟ هذا لا ينبغي ! انظر إلى ! والحق أن وجه ناسكا ديزوف الانطس الأنف الأسود الشعر ، وقامته القصيرة ويده المروقة القوية ، القصيرة الاصابع ، القابضة سيفه المسلول ، كانت كلها كالعهد بها ولا سيما في المساء بعد ان يكون قد عب زجاجنين . وكل ما هناك أن وجهه الآن أشد حرة من المعتاد ، وهو يطوح

— نهاجم حقا ! وماذا تصنع أنت بوقوفك هنا ؟ الجناحان
يترجعان . ارتد بالبرية !

وعبرت السرية الجسر وابتعدت عن مرمى مدافع العدو
من غير أن تضر رجلا واحدا . وتبعنها السرية الثانية ، وغير
القوزاق آخر الجميع واخلوا غدة النهر البعيدة .

وبعد أن اتت سرينا لواء بفلوجراد عبور الجسر ،
ركبنا صاعدين التل ثبعا . وكان الكولونيل كارل بوجدانتش
شوبيرت قد لحق بسرية دنيزوف راكبا بالسيير البطيء غير
بعيد من روستوف ، غير ملق باله إليه . مع أن هذه كانت أول
مرة يلتقيان فيها منذ حادثة تليانين . ولما شعر روستوف أنه في
الجهة وتحت سلطان الرجل الذي أقر بخطئه نحوه ، لم يرفع
عينيه قط عن ظهر الكولونيل القوي ورأسه الكتاني ، ومنته
الأحمر . وفي البداية خيل إلى روستوف أن الكولونيل يتظاهر
بعدم التنبه إليه ، وأن كل مراده الآن أن يمتحن ثباسك حامل
الراية ، فشد قائمته ، وتلفت حوله بروح . ثم خيل إليه أن
بوجدانتش يلزمه عمدا ليدلل له على بطلته ثم خطر له نجاة
أن عدوه يكلف الآن السرية بهجوم بانس عمدا لكي يماثبه .
وراح يحطم بأنه بعد الهجوم سيذهب إليه وهو جريح ويبد إليه
يده بمساحة للمصالحة . وركب إلى الكولونيل الضابط زركوف
المعالي الكتفين المعروف لكل هوسار لواء بفلوجراد لأنه لم
يترك لواءهم إلا منذ أمد قصير . وكان زركوف بعد فصله من
هيئة أركان حرب القائد العام لم يستمر في اللواء قائلا أنه
ليس من الصباغة بحيث يفضى إلى العمل الشاق في الجبهة مع

إلى الوراء رأسه الأشعث الشحيد السواد ، على نحو ما تصنع
الطيور عندما تشرب ، وساقاه نهزان باستمرار بطن جواده
الكريم « البدوي » . وهو يركض به إلى الجناح الآخر للسرية .
ويخيل للرئيس أنه سيسقط إلى الخلف في السرج ، ويصيح
بصوته الأجنس برجاله كي ينظروا إلى طينجاتهم . وركب إلى
كريسن . وكان تقيب أركان الحرب راكبا حصانه القابت
البدين ويتجه بخطوة السير المهادي لملاقاته . ووجه هذا
التقيب بسوالفه الطويلة جاد كالعادة ، إلا أن عينيه كانتا أشد
لملحا من المعتاد . وقال لدنيزوف :

— لن ينخفض الموقف عن استميتك ، وسترى أننا
سنراجع مرة أخرى !

فزجر دنيزوف :

— الشيطان اعلم ماذا سيحدث !

ثم صاح بحائل الراية وقد لاحظ اشتراق وجهه :

— آه ! ياروستوف ! لن يطول انتظارك !

وابتسم له اعرابا عن سروره لمنظر حامل الراية .
وشعر روستوف بسعادة غامرة ، وفي هذه اللحظة ظهر
الكولونيل عند الجسر ، فركض إليه دنيزوف وقال :

— مرنا بالهجوم يا صاحب السعادة ! سوف (نسويهم)
هذه المرة !

فقال الكولونيل في سأم « مخفنا وجهه كأننا ضايقته
ذنبية :

انه يمكن ان يحصل على راتب اكبر لكى لا يعمل شيئا في هيئة الاركان ، ونجح في تعيينه مراسلة في هيئة اركان حرب الامر «باجراتيون» . وهكذا ركب إلى كولونيله القديم بأمر من قائد حرس المؤخرة . وقال بجديته المتجهمة مخاطبا عدوروسنوف ، ومثلثنا إلى رفاته :

— يا كولونيل ! هناك أمر بالرجوع إلى الجسر واحرقه .
نسأله الكولونيل بوجوم :

— أمر ؟ لمن ؟

فاجابه نافخ البوق بجذ :

— لا ادري لمن يا كولونيل . كل ما هناك ان الامر امرنى قائلا : « اركب وقل للكولونيل انه يجب على الهوسار الاسراع بالعودة وإحراق الجسر » .

وجاء في اعقاب زركوف ضابط من الحاشية ، ركب إلى الكولونيل بنفس الامر ، وبعد هذا الضابط شوهد نفسكى البدين راكبا حصانا توقازيا بجذ مسعوبة في الركض به ، وصاح وهو لم يزل يركض متجها إليه :

— يا كولونيل ! قلت لك ان تحرق الجسر ، وما هو قد حدث خطأ في النهم . والكلمة هناك في احتياج شديد !

واستوقف الكولونيل اللواء باستملاء ثم استدار إلى نفسكى وقال :

— لقد كلمتني عن مواد اشتعال . ولكنك لم تقل كلمة واحدة عن الاحراق !

وقال نفسكى وهو يتوقف خالما قلنسوته اللباد ، ومارا بيده المسينة على شعره الجبل بالهرق :

— لماذا يا رجل الطيب ؟ ما الداعي إلى ان اتول لك احرق الجسر وقد بلغت ان تكس عليه مواد الاشتعال .

— أنا لست « رجلك الطيب » يا حضرة ضابط الاركان . وانت لم تطلب منى قط ان احرق الجسر ! أنا اعرف واجبى ومن عافنى ان اتخذ الأوامر بكل دقة ! انت قلت إنه سيجرى إحراق الجسر ، ولكنى لم أعرف من الذى سوف يحرقه !

فقال نفسكى بطوحا فزاعه :

— هذا ما يحدث دائما !

والتفت إلى زركوف وقال :

— كيف اتيت إلى هنا !

— لنفس هذه الأوامر . لماذا تنتصب هكذا كأنك تريد ان

تسحق ؟

وقال الكولونيل بلهجة استياء :

— انت قلت يا سيادة ضابط الاركان إن

فقاطعه ضابط الحاشية قائلا بهزم :

— الامر يقتضى السرعة يا كولونيل ! وإلا حرك العدو

مدافعه المنقودية .

ونظر الكولونيل بذهول إلى ضابط الحاشية ، وضابط

الاركان البدين وزركوف وتطلب حاجبيه وقال بلهجة المنذر

المستعد رغم مضايقتهم له ان يؤدى واجبه :

(م ٦ - الحرب والسلام - الجزء الثاني)

— ماحرق الجسر !

وضرب بساقيه القويين بطن حصانه كانه الموم على كل شيء ، وتقدم فاصدر الامر إلى السرية الثانية التي يتودها دنيزوف ويخدم فيها روستوف ان ترتد عائدة إلى الجسر . وقال روستوف في نفسه وقلبه يندق ودمه يندفع إلى وجهه :

— الامر هكذا فعلا ! انه يريد ان يخبرنى . وسرى هل انا جبان !

ومرة أخرى اكتست وجوه جميع الرجال المشرقة في تلك السرية بتلك الجهامة عندما كانوا تحت النيران . ونظر روستوف بنيت إلى عدوه الكولونيل محاولا ان يتسقط تأكيدا لما خطر بباله ، ولكن الكولونيل لم ينظر قط إليه ، بل كان ينظر كعادته دائما إلى المقدمة وقد علت الجهامة والصراة . واصدر امره . ونرجل الهوسار بسرعة . وقد تشابكت اسيافهم في الاعنة وصلصلت مهمزاتهم . ولا يدرون شخصا ما يصنعون . ورسم الجنود الصليب . اما روستوف فلم يعد ينظر الآن إلى الكولونيل ، فلم يعد هناك وقت لذلك . وخشى ان يتركه الهوسار وراءهم . وارتجفت يده وهو يعطى جواده لمراسلة ، واحس بدمه يندفع إلى قلبه بمنف . وركب دنيزوف مارا به وهو يهتز في سرجه صانحا ببعض الاوامر . ولم ير روستوف شيئا سوى الهوسار الذين يجرون حوله مصلصلين بهاميزهم وسيونهم . وصاح خلفه :

— النقالات !

ولم يفقه روستوف معنى الحاجة إلى نقالات ، بل جرى

محاولا ان يسبق الجميع . ولكنه عند الجسر ، ومن غير أن ينظر إلى مواطىء قدميه نخل في الطين اللزج فتعثر وسقط على يديه . واقامه الآخرون . وسبع صياح الكولونيل الذي تقدم الجميع ووقف جواده عند الجسر بوجه مبتهج ظاهرا :

— من الجانبين يا نقيب !

ومسح روستوف يديه الملوئين بالطين في سروال ركوبه ، والتفت إلى عدوه ، واوشك ان يجرى إلى الامام ، فلما منه انه كلما تقدم كان ذلك أجدر به . ولكن مع أن يوجد انقش لم يكن ناظرا إلى روستوف ولم يعرفه الا انه صاح به في غضب : — من منكم الذى اراه يتقدم في منتصف الجسر ؟ على الجانب الايمن ! ارجع يا حامل الراية !

والتفت إلى دنيزوف الذى ركب ببسالة فوق الواح الجسر وصاح به :

— لماذا المجازفة يا نقيب ؟ يجب ان تترجل !

فاستدار غاسكا دنيزوف في سرجه وقال :

— لن يصاب الا المذنب !

وفي هذه اثناء كان تستفسكى وزركوف وضابط الحاشية واقفين معا خارج مدى العدو ، يرقبون مجموعة الرجال الصغيرة ذات القلائص الصفراء والسترات الخضراء الداكنة المزركشة ، وسراويل الركوب الزرقاء وهى تحفشد فوق الجسر ، وعلى الضفة الأخرى للنهر شوهدت السترات الزرقاء والمجموعات ذات الخيول ، التى من السهل إدراك انها مدافع ، وهم يقتربون من يمينه .

وكانت الأسئلة التي تعتلج في القلوب الواجفة لأولئك الرجال المحققين بالجسر :

— هل سيحرقون الجسر أم لا ؟ من الذي سيصل إليه أولا ؟ هل يجرون إليه ويحرقونه أم سيضطرمهم الفرنسيون بقبائلهم العنقودية ويقتلونهم .

وفي شمس الغروب الساطعة راحوا يحدقون في الجسر والهوسار ، والسترات الزرقاء ذات الرماح والبنادق تتحرك مقترية ، على الضفة الأخرى . وقال نيفتسكى :

— أخ ! سيقع الهوسار في الفخ . فهم الآن ليسوا خارج مدى الطلقات العنقودية .

وقال ضابط الحاشية :

— لقد أخطأ بتكليف كل هؤلاء الرجال بالمهمة . فقال نيفتسكى :

— فعلا . فلو كلف بها شخصين جسورين لكان ذلك كافيا .

وقال زركوف وعيناه على الهوسار ، وإن ظلل يتكلم بلهجته السالجة التي لا يدرك السامع منها أجساد هو أم هازل :

— آه يا صاحب السعادة ! ما أبعد نظرك إلى الأمور ! يرسل رجلا ، ثم من ذا الذي سينحنا وسام فلاديمير والاثواط في هذه الحالة ؟ أما الآن فحتى لو حصنوهم فسوف يبقى من السرية واحد يتلقى النوط ! أن صاحبنا بجدانفتش يعرف من أين تؤكل الكتف !

وقال ضابط الحاشية :

— ها هي مذبذبة عنقودية !

وأشار إلى المدافع الفرنسية التي أخرجت من عرباتها وأخذت تتحرك بسرعة .

ومن الجانب الفرنسي تصاعد الدخان من بين المجموعات التي تستخدم المدافع . نفثة ثم أخرى ثم ثالثة في نفس اللحظة تقريبا ، وفي نفس الآن الذي سمعوا فيه صوت الطلقة الأولى . ارتفعت النفثة الرابعة من الدخان ، ودوت فرقتان متتاليتان ثم فرقة ثالثة . وتلاه نيفتسكى متشبها بيد ضابط الحاشية : وكأنه يعانى ألما شديدا .

— آوه ! ها قد سقط رجل ! سقط ! سقط !

— بل اثنان فيما أظن .

وقال نيفتسكى مشيحا بوجهه :

— لو كنت القيصر لما شنت الحرب !

وبسرعة تم حشو المدافع الفرنسية من جديد ، وكان المشاة يستراثم الزرقاء يجرون صوب الجسر . ومرة أخرى تصاعدت نفاثات الدخان في فترات مختلفة ، وقمعت القذائف العنقودية على الجسر ، ولكن نيفتسكى لم يستطع في هذه المرة أن يعرف ماذا يحدث على الجسر ، وكانت سحابة غليظة من الدخان قد تصاعدت منه ، فالهوسار كانوا قد أشعلوا النار فعلا في الجسر ، والبطاريات الفرنسية تطلق النار عليهم الآن لا ليصلوهم بل لأنهم قربوا مدافعهم وصار أمامهم من يصوبونها إليهم .

واتسع الوقت امام الفرنسيين لاطلاق ثلاث دفعات من القذائف العنقودية قبل ان يعود الهوسار إلى خيولهم . وكانت دفعتان منها خائبتان فبرقت القذائف فوق الهوسار ، اما الثالثة فسقطت وسط المجموعة وصرعت ثلاثة من الهوسار .

وكان روستوف لم يزل تستفرقه علاقته بجذائش . فخطأ فوق الجسر لا يدري ماذا عليه ان يصنع فليس هناك من يهجم عليه بريقه (فهكذا كان يتصور المعركة) ولم تكن منه فائدة في إحراق الجسر لأنه لم يكن احضر معه حزمة قش مثل سائر الجند فوقف ينظر حواله ، عندما علت قعقة على الجسر نجاة كأنها نثرت فوقه حبات من البندق ، ثم سقط اتسرب هوسار إليه على السياج وهو ينز - وجرى إليه روستوف مع الآخرين ، ومرة أخرى صاح بعضهم :

— نقالات !

وتكاثر اربعة على الهوسار وشرعوا يرمونه . وصاح الجريح :

— اووه ! دعوني بحق المسيح !

ولكنهم رفعوه ووضعوه على نقالة . وانشأ روستوف وبدأ يحمل بيدي في مياه الدانوب وإلى السماء والشمس ، وكأنه يفتش عن شيء . وكلم بدت هذه السماء رائحة زرقاء عميقة ، وكلم تبدو الشمس الفاربة منتصرة ومشرقة ، وتبدو مياه الدانوب متألقة ، ويبدو دير الراهبات ، والأخاديد الفاضحة ، وغابات الصنوبر التي يطفو الضباب إلى أعالي

أشجارها . . . انها كلها تمثل السلام والسعادة . وقال روستوف لنفسه .

— ما من شيء اطلاقا كنت اتفاه لو اتنى كنت هناك . منفردا بنفسى . ففى ضياء هذه الشمس الكثير من السعادة . . . اما هنا فائين وعذاب ، وقلق ، وعجلة . . . ما هم يصيحون بأمور اخرى ، والجميع يرتدون إلى الخلف وأنا معهم . وما هو الموت يحق بي من كل صوب . . . ما هي الا لحظة ولن أرى بعدما ضوء الشمس ولا هذا الماء ولا هذا الأخدود بمد ذلك أبدا . . .

وفى هذه اللحظة غابت الشمس وراء السحب ، واقبلت نقالات اخرى متجاوزة روستوف ، واندمج الفزع من الموت ومن النقالات ، وغيب الشمس وعقدان الحياة في احاساس واحد من الخوف المضى . وهمس روستوف لنفسه :

— يا الهى الذى فى السماء ! انقضى واغترى واحنى ! وجرى الهوسار عائدون إلى خيولهم ، وتمالت اصواتهم وقد زابت نقة ، واختلت النقالات عن الانتظار ، وصاح ناسكا نيزوف فى افقه :

— ها انت يا فقاى شمت رائحة البارود !

وقال روستوف لنفسه :

— ما قد انتهى كل شيء . ونكى جبان . نعم أنا جبان ! لقد استخدموا مدانهم بنظام بديع . ولكنها عملية قذرة . هجوم الخيلة شيء لطيف متمتع . هجوم على الكلام ! ولكن هذه العملية كانت مجرد تصويب على الهدف .

وركب دنيزوف إلى جماعة واقفة غير بعيد من روستوف .
مكونة من الكولونيل ونسفتسكى وزركوف وضابط الحاشية .
وقال روستوف في نفسه :

— ولكن يبدو أن أحدا لم يلاحظ شيئا .

والواقع أنه لا أحد لاحظ شيئا على الإطلاق لأن كل واحد
منهم كان قد ألف ذلك الشعور الذى انقلب حائل الراية لأول
مرة ، لأنه لم يسبق له الوجود تحت النيران .

وقال زركوف :

— الآن سنجد ما نتكلم عنه . وسيرتوتنى إلى ملازم ثان
قبل أن ادرى أين أنا . . .

وقال الكولونيل بنبرة انتصار مرحة :

— ابلغ الأمير أننى أحرقت الجسر .

— وإذا سأل عن الخسائر ؟

فاجابه الكولونيل بصوت مدو وبإبتهاج سائر :

— أنها لا تستحق الذكر : جريحان من الهوسار . وقنيل
مرع في مكانه .»

ولم يستطع الألماني أن يكتم ابتسامة رضا وهو ينطق
بالعبارة الأخيرة بالروسية الدارجة .

ذلك الجيش الروسى المؤلف من خمس وثلاثين ألف
مقاتل ، تحت قيادة كوتوزوف ، كان يلاحقه الجيش الفرنسى
المؤلف من مائة ألف مقاتل تحت قيادة بوناپرت ، وتلقاه السكان
بالمداوة . ففقد هذا الجيش الروسى الثقة بذلفائه ، وعانى
من نقص المؤن والإمدادات ، واضطر للعمل في ظروف غير
متوقعة إطلاقا ، فترجع تراجعا سريعا إلى الاراضى السفلى
المحيطة بالدانوب . وهناك توقف الروس ، ولحق بهم العدو ،
وجرت مناوشات طفيلة في المؤخرة ، مع تحاشى الاشتباك إلا في
الحدود التى يحتلها ضلالت التراجع والانسحاب من غير أن
يخسروا امتعتهم ومناذهم ومدافعهم . وجرت عمليات في لياخ
وامستتن وميلك . ولكن برغم شجاعة وعناد الروس في
القتال — وهو ما شهد به العدو نفسه — إلا أن النتيجة كانت
مربدا من التراجع والانسحاب . وكانت القوات النمساوية
التي انطقت من الاسر في (أولم) قد انضمت لقوات كوتوزوف عند
براونلو ، وها هى قد انفصلت عن الجيش الروسى ، وظل
كوتوزوف بلا دعم ومعه قواته الضعيفة المنهكة . ولم يبق
هناك أمل في الدفاع عن فيينا . وبدلا من خطة الهجوم المفصلة —
طبقا لمبادئ العلم الاستراتيجى الحديث — كانت الخطة
المبلفة إلى كوتوزوف أثناء اقامته في فيينا من جانب القيادة
العليا النمساوية كل هدنها — وهو هدف ميونس منه تقريبا —
أن يحاول كوتوزوف تجنب فقدان جيشه ، على نحو ما حدث
ملك في (أولم) ، وأن يتم الاتصال والانضمام إلى القوات
الجديدة الزاحفة من روسيا .

وفي ٢٨ من أكتوبر أخذ كوتوزوف جيشه وعبر به إلى الضفة اليسرى للدانوب ، وهناك توقف للمرة الأولى جاعلا الدانوب فاصلا بينه وبين الجانب الأكبر من قوات العدو . وفي ٣٠ من أكتوبر هاجم فيلق مورتشيسه الذي كان على الجانب الأيسر للدانوب وهزمه . وفي هذه العملية استولى لأول مرة على غنائم عبارة عن راية ومدافع وجنرالين فرنسيين . ولأول مرة بعد انسحاب استمر اسبوعين توقفت القوات الروسية ، وبعد القتال لم يحتفظوا ببيدان المعركة فحسب ، بل وطردوا منها الفرنسيين ، ومع أن القوات كانت مفتقرة إلى الملابس ، ومنهكة القوى ، وفقدت ثلث قوتها بين جرحى وقتلى ومفقودين . ومع أنهم تركوا مرضاهم وجرحاهم على الضفة الأخرى للدانوب ومعهم خطاب من كوتوزوف يمهّد بهم إلى رحمة الأعداء وانسانيتهم ، ومع أن المستشفيات الكبيرة والبيوت في كرمس لم تقصع لكل المرضى والجرحى — برغم هذا كله إلا أن التوقف قبل كرمس والانتصار على مورتشيسه رفع كثيرا من روح القوات المعنوية . فسرت في الجيش كله ، بل وفي القيادة العليا ثائعات مبهجة جدا ، ولكن لا أسلح لها ، عن وشك قدوم طواير القوات من روسيا ، وعن انتصار ما حققه النمساويون ، وعن تراجع بونايرت وقد انتابه الذعر !

وكان الأمير أندريه أثناء الاشتباك مرافقا للجنرال النمساوي شميكت الذي قتل في المعركة ، وكان جواده قد جرح تحته ، وأصيب هو شخصيا بجرح يسير في فخراعه من رصاصة . وبلغته خاصة من القائد العام بعث الأمير أندريه ليجهل نبا هذا النصر إلى البلاط النمساوي الموجود الآن في

برين . لأن فينا مهددة من جانب الفرنسيين . وفي ليلة المعركة كان الأمير أندريه مستثار الأعصاب ولكنه غير منهك القوى . فمع أنه لا يبدو متين البنية إلا أنه بمستطاعه أن يتحمل التعب أكثر من رجال شديدي القوة (فركب مع فصيلة من دونوروف إلى كرمس إلى كوتوزوف . وفي نفس تلك الليلة كلف بحمل رسالة خاصة إلى برين . وهي مهمة تعنى خطوة هامة في الترفي . بصرف النظر عن المكافأة .

كان الليل حالكا ، وبدا الطريق اسود وسط الثلج الأبيض الذي سيمتد يوم المعركة . ويذمن حامل بانطباعات المعركة والنوغمات المبهجة لتأثير أنباء النصر ، وفكريات وداع القائد العام ورفاقه . انطلقت العربة الخفيفة بالأمير أندريه ، وهو يشعر بأنه بعد انتظار طويل خطى بالجرعة الأولى لسمهاده مشنهاذ . وما أن أغض عينيه حتى راحت أصدااء طلقات البنادق والمدافع ترن في أذنيه . واندمجت هذه الأصوات مع قمعقة العربة والأحساس بالنصر . وفي إحدى اللحظات حلم أن القوات الروسية تلوذ بالفرار ، وأنه جرح ، ولكنه سرعان ما استيقظ واستعده أن يدرك أن ذلك كله وهم ، وأن الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار . وتذكر مرة أخرى كل تفصيلات النصر ، ورجولته الهادئة أثناء المعركة . وما أن اطمأن حتى بدأ يقنو . . واعتقت الليل الحالك طلعة مشرقة للشمس وبدأ الثلج يذوب في الشمس . وركضت الجياد بسرعة ومرقت على جانبي الطريق غابات جديدة وحقول وأشجار مختلفة المنظر .

وعند إحدى المحطات أدرك قافلة من الجرحى الروس ،
والضابط الروسي المكلف بالنقل يرتد متراخيا في العربة الاولى .
وهو يكيل السباب الفج لأحد الجنود ، وفي كل من العربتين
الالمانيتين الطويلتين سبعة من الجرحى الشاحبين المضطربين
القذرين يرتججون فوق الطرق الصخرية . وكان البعض منهم
يتكلمون (فقد سمع الفاظا روسية) وبعضهم الآخر ياكلون
خبزا . وابلغهم اصابة يحذقون بذهول إلى عربة الامير التي
تبرق بجوارهم . في وهرا الاطفال المرضى . نأير الامير الحودى
بالوقوف ، وسأل جنديا في اى معركة جرحوا ، فأجابه :

— امس الاول ، على ضفة الدانوب .

فأخرج الامير كيس بقوده واعطى الجنود ثلاث قطع
ذهبية وقال للضابط الذى اقترب :

— هذه للجميع !

وقال للجنود :

— امسعوا بالشفاء ، فلم يزل امانا الكثير ...

وصاح بالحودى :

— اخبار طيبة ! انطلق قدما !

وكان الظلام قد خيم عندما دخل الامير برين والفي
نفسه محاطا ببيوت عالية ، ومتاجر مضادة ، ونوافذ البيوت
يشع منها الضوء ، ومصابيح الشوارع موقدة ، والعربات
الجبيلة تدرج بضوائها على الطرق المهددة . وهى كل مظاهر
الحياة في مدينة عظيمة تموج بالحياة وتخلب لب الجندي بعد
حياة المعسكر . وبالرغم من سرعة العربة والارق شم



وعند إحدى المحطات أدرك قافلة من الجرحى الروس ..

البارود : « وأرضى جفنيه ازدراء وسار بتمهل شعيد داخلًا حجرة وزير الحرب . واشتد احساسه بالزراية له عندما رآه جالسًا إلى منضدة كبيرة . وظل دقيقتين لايمير دخوله الثقاتا . وكان هذا الوزير أصلع وعلى عارضيه خصلات شعر اثنى عشر منموج . وقد جلس بين شمعيتين يطالع أوراقًا ويسجل عليها ملاحظات بقلم الرصاص . وظل يقرأ إلى النهاية من غير أن يرفع عينيه عند انفتاح الباب وصوت وقع الأقدام . ثم قال لمعاونته وهو يقدم له الأوراق غير ملتفت إلى الملحق الروسى :

— خذ هذه واعطه اياها .

واحس الأمير أندريه أن الوزير إما أن يكون أقل اهتمامًا بأعمال جيش كوتوزوف منه بالموضوع الآخر الذى استحوذ على اهتمامه . وأما أنه يريد أن يشعر الملحق الروسى بذلك . وقال لنفسه :

— ولكن هذا الأمر لا يعيننى إطلاقًا .

ووضع وزير الحرب الأوراق الباقية سعة ، وسوى اطرافها ثم رفع رأسه ، وهو راسى يدل على ثقافة وشخصية ، ولكنه فى اللحظة التى استدار فيها إلى الأمير أندريه تغير وجهه الوزير فاختفى منه التصميم والحصانة وغدا واعيا وعاديا . وارتسمت عليه الانتسامة البلهاء المنافقة التى لا تدارى نفاقها : ابتسامة رجل يستقبل الكثيرين من أصحاب الالتماسات ، الواحد منهم بعد الآخر . ونسأل :

— من الجنرال .. المارشال كوتوزوف ؟ أبناء حسنة

نمينا أرجو ؟ هل حدث اثنيك مع مورتية ؟ حقًا لقد آن الأوان !

الأمير أندريه بأنه أكثر بقطلة وهو يستقل العربة إلى القصر مما كان فى الأمسية السابقة . وتالفت عيناه ببريق كبريق الحمى ، وتعاقبت أفكاره بكل سرعة ووضوح . وتصور مرة أخرى كل تفاصيل المعركة بكل وضوح وتميز على النحو الذى أراد أن يعرضه على الإمبراطور نرنسيس . وتخلل الأسئلة العرضية التى قد توجه إليه والإجابات التى ينبغى أن يرد بها عليها . وتخلل إليه أنه سيمثل أمام الإمبراطور على الفور ، ولكن عند مدخل القصر أسرع موظف للقائه . ولما علم أنه مبعوث خاص قاده إلى مدخل آخر . وقال له :

— انعطف إلى اليمين فى هذا الدهليز يا صاحب السعادة نجد المعاون المنوب الذى سوف يقولك إلى وزير الحرب .

ولما قاله المعاون المنوب طلب منه الانتظار وحل إلى وزير الحرب . وبعد خمس دقائق عاد هذا المعاون وبتهذيب ملحوظ انحنى وادخل الأمير أندريه أمامه وقاده إلى الدهليز إلى الحجرة الخاصة بوزير الحرب . وكان هذا المعاون بهذه الشكليات المهذبة المبالغ فيها يريد — فيما بلوح — أن يحس نفسه من أى محاولة لرفع الكلفة من جانب المعاون الروسى . وهبطت مشاعر الأمير أندريه المبهتة وهو يقترب من سبب وزير الحرب . لأنه شعر بأنه قد استخف به . وسرعان ما تحول هذا الشعور إلى شعور بالإزدراء لم يكن مطلوبًا . وأمدّه ذهنه البارع بمرر لشعوره بالإزدراء نحو المعاون ووزير الحرب كليهما . وقال فى نفسه : « لاشك أن كسب الانتصارات يبدو لهما امرًا غاية فى البساطة ، لأنهم لم يشموا قط رائحة

وتناول الرسالة الموجهة إليه وبدأ يقرأها بصميا:
حزينة ، وتال بالألمانية :

— آه ! يا إلهي ! يا إلهي ! شجبت ! يا لها من كارثة !
يا لها من كارثة !

وجرى بمهينه على سطور الرسالة ثم وضعها على
المنضدة ونظر إلى الأمير أندريه متفكرا .

— آه ! أنها لكارثة ! الاشتباك كما تقول كان حاسما ؟
ولكن مورنييه لم يؤسر . كم يبرني أنك جئت بأخبار طيبة .
وإن كان موت شجبت ثمنا فاندحا للنصر ، وصاحب الجلالة
سيحب طبعاً أن يراك . ولكن ليس اليوم . وأنا أشكرك .
ولابد أنك بحاجة للراحة . كن في قاعة الاستقبال بعد العرض .
وسوف أبلغك في الوقت المناسب .

وعادت إلى وجه وزير الحرب الابتسامة الغبية التي
كانت قد غارقتها وهو يتكلم ، وقال :

— إلى اللقاء ، أشكرك بحق . جلالة الإمبراطور من
المرجع جدا أن يرغب في استقبالك .

واحنى رأسه . وغادر الأمير أندريه القصر ، وقد أحس
أن كل الاهتمام والسمادة اللذين منحهما إياهما النصر قد
تبخرا الآن بين يدي الوزير غير المكتوث ومعاونيه الرسمي
المتمسك بالشكليات . وتضرع كل مغزى أفكاره في الحال ،
وبدت له المعركة ذكرى مبعثة في البعد .

أقام الأمير أندريه في برين مع روسي من معارفه في السلك
السياسي ، وهو بيلييين . الذي قال وهو مقبل للقاء الأمير أندريه :

— يا عزيزي الأمير . ليس أحب إلى نفسي أن أراه منك .
والقبت إلى خادم كان قد أدخل بولكونسكي :

— غرانز . خذ امتعة الأمير إلى حجرة نومي .

ثم أرفق للأمير قائلا :

— أنت رسول النصر ! هذا رائع ! أنا حبيب الدار
لرصى كما نرى .

وبعد الاغتسال وتبديل الثياب توجه الأمير أندريه إلى
مكتب الدبلوماسي الفخم وجلس إلى الطعام الذي أعد له .
وجلس بيلييين مغلدا للهدوء أمام المدفأة .

وليسست الرحلة فقط ، بل كل الوقت الذي قضاه الأمير
أندريه مع الجيش أثناء الزحف : حرمة من كل منافع النظافة
وأناقة الحياة . مما جعله الآن يحس إحساسا لطيفا بالراحة
في هذا الغرف الذي تعود به الطفولة . ثم أنه بمعد هذا
الاستقبال التمسوى كان يسهه أن يتكلم — أن لم يكن
بالروسية لأنها يتحدثان بالفرضية — فعلى الأقل إلى شخصي
روسي يمكن — فيها بخيل إليه — أن يشارك في الكراهية الروسية
العامة للنمساويين ، وهي كراهة يحسها الآن بصفة خاصة .
وكان بيلييين رجلا في الخامسة والثلاثين ، أعزب ، من نفس
وسط الأمير أندريه . وقد تم تعارفهما في بطرسبرج ، ولكن

صلفهما ازدادت توثقا أثناء إقامة الأمير اندريه في فيينا مع كوتزوف . ومثلما كان الأمير اندريه شاعرا ييثر بالترقي المريع في الجيش ، كذلك كان بيليين ييثر بمستقبل أفضل أيضا في السلك الدبلوماسي . فهو صفر السن . ولكنه ليس دبلوماسيا صغرا ، لأنه دخل هذا السلك وهو في السادسة عشرة . وخدم في باريس وكوبنهاجن وما هو الآن في فيينا يشغل منصبا هاما . وكل من وزير الخارجية وسفيرنا في فيينا يعرفانه ويقدرانه . فهو ليس من ذلك الحشد الكبير من الدبلوماسيين الذين تقتصر مؤهلاتهم على صفات سلبية . ويريدون نحاشي عمل أمور معينة ، ويتحدثون الفرنسية لكن يوصفوا بأنهم دبلوماسيون بارعون ! بل هو من الدبلوماسيين الذين يحبون العمل وبفهمونه ، ورغم تراخيه الطبيعي كثيرا ما كان يقضي لياليه أمام مكتبه وهو يكتب . ولم يكن اهتمامه بالسؤال « لماذا ؟ » بل بالسؤال « كيف ؟ » ولم يكن يسأل بكمونات عمله الدبلوماسي . بل كانت كتابة منشور دوري . أو مذكرة . أو تقرير بدقة وحساسية واثقة مهمة تمنحه متعة كبيرة . وفيما عدا مثل هذه الأعمال كانت مزايا بيليين موضع تقدير بسبب يسر تحركاته واحاديثه في الاوساط العليا .

فيليبين كان يستمتع بالاحاديث مثلما يستمتع بالعمل . عندما يكون الحديث فكها في اثاقة . وفي المجتمع كان دائم الترقب لفرصة يقول فيها شيئا لافتا . ولم يكن يدخل في الحديث إلا في هذه الظروف . نقد كانت احاديثه دائما مؤشاة بعبارات مصقولة طريفة حكيمة وذات اهتمام عام . وكانت هذه العبارات تتم صياغتها في معمله الذهني الداخلي . كانها

يتمتع أن يتاح للخاصين من الناس تفكرها بسهولة ونقلها من قاعة استقبال إلى أخرى . ولذا كانوا يتفاضلونهما في غامات استقبال فيينا . وهما لها فيما بعد تأثير كبير على ما يسمونه بالاحداث الكبرى .

وكان وجهه التحيف نغيطه الفضول العميقة التي تبدو دائما نظيفة معتنى بفسطها مثل اطراف الانامل بعد الحمام . وحركات هذه الفضول تقوم بالدور الأساسي في سميرات شخصته . ففي لحظة ما تنغصن جبهته في اخاديد عريضة . ويرتفع حاجباه ، وفي لحظة أخرى يسقط حاجباه وتغطي الفضول العميقة وجنتيه . وعيناه الفائزتان تطل منها نظرة صريحة مرحة . وقال للأمير :

— هيا الآن وخبرنا عن انتصاراتك .

وبكل نواضع ومن غير أن يشير مرة واحدة إلى علاقته بالموضوع . راح يقص عليه وصف الاشتباك ، ثم استقبلته لدى الوزير بعد ذلك ، وختم ذلك بقوله :

— لقد استقبلوني انا وابنائى وكانى كلب بعد شوط من لعبة القناني الخشبية .

فاستسم بيليين . واختفت الفضول من وجهه . وقال وهو ينظر عن بعد إلى اطراف اصابعه ويغصن الجلد الذى فوق عينه اليسرى وقال :

— على كل حال يا صاحبي العزيز . ومع تقديري العالي للقوات المسلحة الروسية إلا انى اعترف ان نصركم ليس نصرا مؤزرا مرموقا !

ومضى يتكلم بالفرنسية ولا ينطق بالروسية إلا تلك
اللفاظ التي يريد أن يضمن عليها نبرة ازدراء وأردف :

— انكم بكل كتلة جيشكم انقضضتم على مورتييه المائت
الحظ ومعه فيلق واحد ، وهاهو مورتييه تسرب من بين
اصابعكم . فابن هذا النصر ؟

فاجابه اندريه :

— إذا أردت الجد . فنحن على الأقل نستطيع ان نقول
بلا مبالاة ان النتيجة افضل من نتيجة معركة (اولم) :

— لماذا لم نأسروا لنا واحدا على الأقل ، من هؤلاء
المارشالات .

— لان كل شيء لم يتم على ما نتوقع . والأمور ليست
في ساحة الوغى على نحو ما هي في ساحة العرض وقد ظلت
لك اننا توقعنا ان نهاجم مؤخرة العدو في الساعة صباحا ،
ولكننا لم نصل قبل الخامسة مساء .

فقال بيلييين باسمه :

— ولماذا لم تهاجموا في الساعة صباحا ! ذلك ما كان
ينبغي : ان تهاجموا في الساعة صباحا !

فقال الامير اندريه بنفس اللهجة :

— ولماذا لم تفلحوا انتم في اقتناع بونابرت بالوسائل
الدبلوماسية ان يترك جنوه وشأنها ؟

— اعرف انك تظنه امر ميسورا جدا ان تأسر المرشالات
وانت جالس على الأريكة امام المدفأة . وهذا صحيح . ومع

هذا يظل السؤال قائما لماذا لم تأسروه . ولا ينبغي ان
تدهشى إذا كان جلالة الإمبراطور الملك العظيم فرنسيس ،
شقيقه شان وزير الحرب . ليس شديد الفرح بسبب نصركم
هذا . بل اننى وأنا مجرد سكرتير في السفارة الروسية
« اشمع بضرورة اعلان الجيور بان اعطى خادمي " فرانز تالر »
اجازة يستمتع بها مع حبيبة قلبه .

ونظر بصراحة إلى الامير اندريه وفجأة سمح للتجاعيد
ان تختل من جيبته . وقال بولكونسكى :

— الان جاء دورى لاسلك « لماذا » يا فتى العزيز
واعترف لك اننى لم اهتم هذه المسألة ، ربما لان هناك خلفا
دبلوماسية تتجاوز ذهنى الكليل . ولكنى عاجز عن الفهم .
ماك يخطر جيتا باسمه والارشيدوق فرديناند والارشيدوق
كارل لا تصدر منهما حركة . ويرتكان خطأ في اثر خطا .
وكوتوزوف وحده يكسب نصرا حاسما ويحطم هيبة ان الفرنسيين
لا يفليون . ووزير الحرب لم يعن بمعرفة التفاصيل .

— لهذا السبب بالذات يا فتى العزيز تحية ومجدا
للقصر ولروسيا وللايمان : كل هذا حسن جدا ، ولكن
ما علاقتنا نحن البلاط النمساوى بانتصاراتكم ؟ جيتونا بأبناء
طيبة عن نصر للارشيدوق كارل او فرديناند — ماى ارشيدوق
منهما معادل للآخر كما تعلم — حتى ولو كان نصرا على غرفة
مطاق لبونابرت ، تجد الامر مختلفا . ونطلق المدافع احتفالا
اما نصركم هذا فتعذيب لنا ، كأننا قد غطقوه بنا عمدا .
الارشيدوق كارل لا يعمل شيئا ، والارشيدوق فرديناند يلطخ

نفسه بالعار ، وانتم تهجرون فيينا متخليين عن الدفاع عنها
كانكم تقولون ان الله معنا ، وليخطفكم الشيطان انتم
وعاصيتكم .. وتضمون جنرا لا كلنا نحبه — وهو شهيدت —
في مسار رصاصة ، ثم نأتون كي تهنئونا على انتصاركم ! ..
يجب ان تعترف انه ما من انباء اشد اثاره للغبط والسخط مما
جنتم به ! وكانكم فعلتم ذلك عبدا . ولكن بصرف النظر عن
هذا ، لو انكم كسبتم نصرا مؤزرا فعلا ، ولو ان الارشيدوق
كارل كسب نصرا . لكان لهذا اثر بعيد على مسار الاحداث .
لقد فات الاوان الآن ، بعد ان احتلت القوات الفرنسية فيينا .

— احتلتها ؟ فيينا احتلت !

— ليس هذا فحسب ، بل ان بونابرت في قصر شونبرور
وعزيزنا الكونت اوربونا راحل كي يتلقى اوامره .

وشمر بولكونسكى — بعد اجهاد الرحلة وانطباعات
الاستقبال ، ثم بعد الطعام الذى تناوله لتوه — انه غير قادر
على استيعاب كل مغزى الكلمات التى سمعها الآن . واستطرد
بيليين :

— لقد كان الكونت لشتنفلز هنا هذا الصباح واطلعنى
على خطاب يتضمن وصفا كاملا للعرض العسكرى الفرنسى
في فيينا .. وفيه الامر ميرا وكل الآخرين .. فما انت ترى
ان نضرك ليس بدعاة كبيرة للسرور والابتهاج ، وانه لا يمكن
ان تستقبل بوصفك المنفذ لنا !

فقال الامر اندريه وقد بدا يدرك ان انباءه عن المعركة
امام كرمس قليلة الاهمية فصلا في ضوء حدث خطير مثل
الاستيلاء على عاصمة النمسا :

— الحقيقة انى لا ابلى بهذا كله على الاطلاق . ولكن
كيف استولوا على فيينا ؟ وماذا عن جسرهما وتحصيناتها
الشهيرة والامر اورسبرج ؟ فقد بلغنا ان هذا الامر يدافع
عن فيينا .

— الامر اورسبرج معسكر في ناحيتنا ويدافع عنا .
فناغا عديم الاثر فيها اتصور ولكن فيينا على الجانب الآخر
للنهر . كلا ! انهم لم ياخذوا الجسر واتمنى الا ياخذوه لانه
ملهم وصدرت الامور بنسبه ولولا هذا لكنا منذ زمن طويل في
جبال بوهيميا ، ولكنت انت وجيشك امضيتم ربع ساعة
سينة جدا بين نارين .

— ولكن هذا لا يعنى على كل حال ان الحملة قد انتهت .

— اما انا فاعتقد انها انتهت . وهذا ايضا اعتقاد كل
الاطباء هنا ، وان لم يتجاسروا على التصريح به . وسيكون
الامر كما قلت انا عند بداية الحملة ، وهو ان المسألة لن تحسم
بنيرانكم املم ديرشتاين « ولا بالبارود ، بل على يد من
اخترعوه . والسؤال الوحيد هو عم سيقضى اللقاء بين
الإمبراطور الكسندر وملك بروسيا . فان دخلت بروسيا الحلف
اجبروا النمسا وكانت هناك حرب ، وان لم تدخل الحلف
فسيكون الموضوع الوحيد هو الاتفاق على المكان الذى تملى
فيه شروط كابو فورميو الجديدة .

وصاح الامر اندريه نجاة جامعا قبضة يده الصغيرة
ليدق بها المنفذة :

— ولكن ياله من عبقرى ! وما اسعد طالعهم

نقال بيليين مخفنا جبينه ايدانا بأنه سيقول كلمة
ماتورة :

— بونايرت ؟ بونايرت ؟ ومع هذا اظن انه ما دام يلى
الآن ارادته على استراليا من شوشرون ، فمن الضروري ان
نخلى عن النطق الإيطالى لاسمه ونتبع البدعة الجديدة في
هذا !

— دع المزاح جانبا . وقل لى اتمتقد حقا ان الحملة قد
انتهت ؟

— سأقول لك ماذا اعتقد ، ان النمسا قد جرى استغلالها ،
وهي لم تعود هذا وستنتقم ! وقد جرى استغلالها في المقام
الاول لان اقاليمها نهبت . (ويقال ان القوات المسلحة الروسية
المقدسة تنهبها بقسوة) وجيشها دمر ، وعاصمتها سقطت ،
وكل ذلك من اجل سواد عيني ملك سردينيا . ولذا يا فتى
المعزى تقول لى غريزتى بينى وبينك اننا كنا غريسة غفلة ،
كما تحدثنى عن مفاوضات مع فرنسا ومقترحات سلام ، سلام
سرى ، يعقد على انفراد :

— مستحيل ! فهذه خستاسة .

نقال بيليين تاركا الغضون نخفى من جبينه . آية على
انه انتهى من هذا الموضوع :

— سيطلعنا الزمن على كل شيء .

ولما ذهب الأمير أندريه إلى الحجرة التي كانت قد أعدت
له ورقد على الفرش النظيفة ، المحشوة بالريش ، والوسائد
الدافئة المعطرة ، أحس أن المعركة التي حمل أنباءها بعيدة

عنه جدا . واستولت على انتباهه اسكار الحلف البروسى
وخيانة النمسا وانتصار بونايرت الجديد وموعد استقبال
الإمبراطور له في اليوم التالي . وأغمض عينيه فجعلت أذناه
ترنان بصف المدافع وطلقات البنادق وقمقعة المجلات ، ورأى
مرة أخرى طابور حملة البنادق وهم يركضون هابطين التل .
وسمع نيران الفرنسيين ، فأحسن قلبه يدق ورأى نفسه يخب
بجواده أمام الصفوف مع شميدت « والرصاص ينز من حوله
نشعر بلذة الحياة المركزة التي لم يجربها منذ طفولته .
واستيقظ . وقال لنفسه بأبضامة طفلية سعيدة : « أجل . كل
هذا حدث ! » ثم غاص في نوم الشباب العميق ...

- ١١ -

وفي اليوم التالي استيقظ متأخرا ، ولما استرجع انطباعات
الماضى كان أبرز ما تذكره انه مسوف يتم تقديمه للإمبراطور
فرنسييس . وتذكر وزير الحرب ، والباور المخرق في الرسميات
... وبيليين ، وحديث اللبلة الماضية . وارتدى ثيابه الرسمية
الكاملة للذهاب إلى البلاط ، وهي ملابس لم يرتدها منذ أمد
طويل ، وتوجه نشطا ملتفعا إلى حجرة بيليين وذراعه معلقة في
حمالة ، ووجد هناك أربعة من أعضاء السلك السياسى .
وكان يصرّف منهم الأمير ايبوليت كوراجين من مسكونارية
السفارة ، وقدمه بيليين إلى الآخرين .

وكان زوار بيليين مجموعة من الشباب الأثرياء المرحين
الراقين الأثيقين ، يكونون هنا — كما في فيينا — زمرة على

حدة ، زعيمها بيلييين يقول دائما عندما يتكلم عنها « اصحابنا » .
وهي زمرة تكاد تقتصر على الدبلوماسيين ، ولها اهتماماتها
— بمزول عن الحرب والسياسة — التى تدور حول المجتمع
الراقى والعلاقات مع نساء معينات والجانب الشكى للخدمة .
وقد كان استقبالهم للأمير اندريه وديا حارا ، باعتباره واحدا
من زمريتهم (وهو شرف لا يمنحونه إلا لليلة القليلة) وعلى
سبيل التهذيب وتفويج النالج وجهوا إليه عدة أسئلة عن
الجيش والمركة ، ثم ارتد الحديث إلى سياق المزاج والثروة
المككة . وقال احدهم بمناسبة كارثة حدثت لزميل :

— ولكن اطرف ما فى الموضوع ان الوزير صارحه بان
تعيينه فى لندن ترقية وعليه ان يعده كذلك . ايكنكم ان تخيلوا
سحنته فى هذه اللحظة ؟

— ولكن اسوا ما فى الموضوع لم نعرفوه بعد . وسافشى
سر كوراجين — فهذا الدون جوان سيستفيد من هذه الكارثة ،
يا له من مخلوق رهيب !

وكان الأمير ايبوليت مسترخيا فى مقعد ، وساقاه فوق
ذراع الكرسي ، فضحك وقال :

— حدثنى عن هذا .

فتصايحت أصوات كثيرة : « ايها الدون جوان ! ايها
الغبان ! » وقال بيلييين ملتفتا إلى الأمير اندريه :

— احسبك يا بولكونسكى لا تدرى ان كل مظالم الجيش
الفرنسى (واكاد اقول الجيش الروسى) ليست شيئا بالقياس
إلى انتصارات هذا الشاب فى اوساط السبديات .

فقال الأمير ايبوليت ، وهو يحلق من وراء نظارته فى
ساقيه المرفوعتين :

— المرأة ... رفيقة الرجل !

فحققه بيلييين وسائر الزمرة ، محققين فى ايبوليت .
وادرك الأمير اندريه ان ايبوليت هذا (الذى لا يخفى عن نفسه
انه كان يمارسه على زوجته) هو هدف سخرية هذه الزمرة .
وقال بيلييين على حدة لبولكونسكى :

— لابد ان اتحقق باحدى طرف كوراجين . فهو منذ
عرض آرائه فى السياسة يتكلم بكل جد .

وجلس بجوار ايبوليت ، وغضن جبهته ، وبدأ يتكلم معه
عن السياسة ، ووقف الأمير اندريه والباقيون حول هذين
الانئين . وشرع ايبوليت يتكلم وهو ينظر يجد اليهم جميعا :

— الوزارة فى برلين لا يمكن ان توافق على الحلف ...
انهمتم || ... ثم ان جلالة الإمبراطور لا يريد ان ينخلى عن مبدأ
تحالفنا .

ثم قال للأمير اندريه وهو يتأبط ذراعه :

— تريث . اتا لم اتم كلامى . اعتقد ان التدخل سيكون
اقوى من عدم التدخل ، ورسالتنا فى ٢٨ من نوفمبر لا يمكن ان
نعدّها استثناء وهكذا سينتهى كل شيء .

واسقط ذراع بولكونسكى علامة على انه ختم كلامه .
وقال بيلييين الذى تهدلت خصلة شعره الكثيفة من فرط
تفضن حاجبيه سرورا :

— لقد مررتك يا ديومستين بالحصاة التي تخفيها في
ميك الذهبى !

وضحك الجميع ، وكان ايبوليت اعلامه ضحكا . وان
كان واضحا انه مكتف فهو يتنفس بصموبة ، ولكنه لم يستطع
مخالبة هذه الضحكة الوحشية التي تشنجت بها معالم وجهه
الجامد في العادة . وقال بيليين :

— ان بولكونسكى ابها السادة ضيفى هنا في برين .
واريد ان اطلعه بقدر الامكان على كل مغريات حياتنا هنا . ولو
كنا في نيبينا لكان الامر سهلا ميسورا ، اما هنا في هذا الجحر
الموراق القذر فالامر اصعب . ولذا ارجوكم جميعا المعون ،
ويجب ان نمتعه في برين . ستتكل انت بالمسرح وأنا سأتكفل
بالمجتمع ، واما انت يا ايبوليت فتتكل بالسيدات طبعاً !

فقال أحد أفراد الزمرة وهو يلثم اطراف أصابعه :

— يجب ان نريه امبلى ! نهى لذبة !

فقال بيليين :

— وعلى وجه العموم يجب ان نحول هذا الرجل
المتعطش للدماء إلى اهتمامات أكثر إنسانية !

وقال بولكونسكى وهو ينظر في ساعته :

— لا أستطيع ان استغل كرم ضيافتكم أكثر من هذا
أيها السادة . فقد حان لى الآن ان انصرف .

— إلى أين ؟

— إلى الإمبراطور .

— أوه ! أوه ! أوه !

وقالت أصوات كثيرة :

— إلى اللقاء إذن يا بولكونسكى ! إلى اللقاء يا امير ! عد
بكرنا نحن معتمدون عليك .

وقال بيليين وهو يصحب بولكونسكى إلى البهو :

اجتهد ان توفى انضباط القوات حقها ، وتركر على
الإمداد والتزوين أثناء الزحف . عندما نتحدث إلى الإمبراطور .

فقال بولكونسكى بأسا :

— كان هذا بوى . ولكن احببني لا أستطيع ذلك .

— تكلم بقدر الامكان عن هذا كله على كل حال . ان

الإمبراطور يحب الاستقبالات ، ولكنه لا يجب ان يتكلم كثيرا .
بل ولا يستطيع الكلام ايضا كما سترى !

- ١٢ -

وفي الاستقبال الصباحى اكتفى الإمبراطور فرنسيس
بالنظر بإيمان في وجه الامير اندريه ، وأوما إليه براسه الطويل
وهو واقف في المكمان الذى خصصوه له بين الضباط
التمسائين . ولكن بعد انتهاء حفل الاستقبال الجاعى ابلغ
ياور المساء المنصرم بكل الروح الرسمية بولكونسكى رغبة
الإمبراطور في أن يستقبله بمقبة خاصة . وقد استقبله
الإمبراطور فرنسيس واقفا في وسط الحجرة . وادهش الامير
اندريه ان الإمبراطور قبل الحادثة بدا عليه الارتباك ، فلم
يعرف ماذا يقول وأحمر وجهه ، ثم قال له بسرعة :

— أخبرني متى بدأت المعركة .

وأجابه الأمير أندريه . وأعقبت هذا السؤال أسئلة أخرى في نفس بساطته :

— هل كوتوزوف بخير ؟ ومنذ متى غادرت كريمس ؟

وما إلى ذلك . فقد كان الإمبراطور يتكلم وكان هدنه الوحيد أن يوجه عددا معينا من الأسئلة . وكانت إجاباتها — كما هو واضح جدا — لا تنميه إطلاقا . وسأله الإمبراطور أيضا :

— في أي ساعة بدأت المعركة ؟

فأجابه الأمير أندريه وقد زادت لهفته على انتهاز الفرصة لتقديم وصف دقيق على النحو الذي أعده في ذهنه لكل ما يعرفه ورآه بنفسه :

— لا يمكنني أن أعين لجلالتكم الساعة التي بدأت فيها المعركة في الخطوط الأممية ، ولكن القوات في دورينشتاين . حيث كنت ، بدأت الهجوم في نحو الساعة السادسة مساء .

ولكن الإمبراطور ابتسم وقاطعه قائلا .

— كم ميلا ؟

— من أين إلى أين يا صاحب الجلالة ؟

— من دورينشتاين إلى كريمس .

— ثلاثة أميال ونصف يا صاحب الجلالة .

— وهل تخلى الفرنسيون عن الضفة اليسرى ؟

— بحسب رواية داوريانا ، عبرت آخر قواتهم النهر على أطواف في الليل .

— انكم مؤن كافية في كريمس ؟

— لم تقدم لنا المؤن بالقدر . . .

فقاطعه الإمبراطور قائلا :

— وفي أي ساعة كان بصرع الجنرال شميدت ؟

— في الساعة السابعة ، على ما اعتقد .

— في الساعة السابعة ! كم هذا محزن ! محزن جدا !

وقال الإمبراطور إنه يشكره ، وانضى . . وانسحب الأمير

أندريه ، وعلى الفور أحرق به رجال البلاط من كل جانب . ورأى في كل وجه عبونا تنقبض بالمودة وسمع أصواتا ودبة توجه إليه الخطاب . ولأمه ياور الأمس لعدم إقبالته في القصر ، وعرض عليه ضيافته في منزله الخاص . وأقبل وزير الحرب وهناك على نيله وسام ماريا تريزا من الطبقة الثالثة ، الذي أنعم الإمبراطور به عليه . وتقدم أمين الإمبراطورة فدعاه لمقابلة خلقتها ، وأن الرشيدوقه أيضا راغبة في رؤياه . ولم يدر أنها يلي . ولبت بضغ ثوان يحاول تجميع أفكاره . ووضع السفير الروسي يده على كتفه وقاده إلى نافذة ، وبدأ يتحدث إليه .

وعلى عكس توقعات بيليين ، قولت الأنباء التي جاء بها بالانتهاج . وربيت صلاة للشكر وأنعم على كوتوزوف بالصليب الأكبر من نيشان ماريا تريزا . وأجزلت العطايا للجيش كله . وتلقى بولكونسكي الدعوات من كل جانب ،

وتعین عليه أن يقضى الصباح كله في زيارة كبار الشخصيات في الحكومة النمساوية . وبعد الفراغ من الزيارات عاد الأمير أندريه في الخامسة مساءً إلى بيت بيليين ، وراح في الطريق إلى هناك يديج في ذهنه خطاباً إلى أبيه عن المعركة وعن استقباله في برين . وأمام درج بيت بيليين رأى عربته محملة إلى نمناها يائساء . وخرج « فرانز » خادم بيليين من الباب ، وهو يجر وراءه بصعوبة حقيبة سفر كبيرة .

وقبل العودة إلى بيت بيليين كان الأمير أندريه قد ركب إلى مكتبة ليحصل على رصيد من الكتب للحملة . وقضى هناك بعض الوقت . وسأل بولكونسكى فرانز :

— ما الخبر ؟

فقال فرانز وهو يدرج الحقيبة الكبيرة فوق العربة بشيء من الجهد :

— أه يا صاحب السعادة ! علينا أن ننقل مرة أخرى إلى مكان أبعد ، فالوعد قد عاد لنمقنا مرة أخرى ! — ماذا تقول ؟

وخرج بيليين لاستقبال بولكونسكى وقد بدت على وجهه الهدوء في العادة إشارات الاثارة وقال :

— لا ، لا ، عليك أن تعترف بأن هذا ضرب من السحر ! أعنى قصة جسر تابور . فقد عبروه من غير أن يطلقوا طلقة واحدة .

ولم يفهم الأمير أندريه شيئاً ، فقال لبيليين :

— من أين أتيت ما بدت لا تعرف ما يعرفه الآن كل حوذي في المدينة ؟



فقال فرانز وهو يدرج الحقيبة الكبيرة فوق العربة بشيء من الجهد :
— أه يا صاحب السعادة ! علينا أن ننقل مرة أخرى إلى مكان أبعد .

لقاء مع بونابرت وانهم حضروا لمقابلة الأمير أور سبرج وما إلى ذلك . وبمك الضابط إلى أور سبرج ، في حين أخذ هؤلاء السادة الجسكونيون يعانقون الضباط ويطلقون التكات ، وهم جلوس على الدافع ، في حين تقدمت كتيبة فرنسية خلصة على الجسر ورمت أكياس المواد المشتعلة في النهر ثم زحفوا إلى رأس الجسر . وأخيرا ظهر قائد برتبة فريق ، وهو أميرنا العزيز أور سبرج فون ماوترن ، فهتفوا به : « يا عدوى العزيز ! يا زهر الفروسية النمساوية ! وبيا بطل حرب الأتراك ! لقد انتهى القتال ، ولنا الآن انتصاف .. والإمبراطور نابليون يتحرق شوقا للتعرف إلى الأمير أور سبرج . وباختصار استطاع هؤلاء السادة الثلاثة الجسكونيون أن يبلغوا أور سبرج بالكلمات المسولة ، وقد أرضى غروره أن يجد نفسه في هذه العلاقة الحميمة مع المارشالات الفرنسيين ، وازاغت عينيه زخارف عبااتهم ، وريش الثعالب في قلنسوة « مورا » فازاغوا بصيرته وجعلوه ينسى أنه كان عليه أن يطلق نيرانه على الأعداء . وجرت كتيبة فرنسية إلى رأس الجسر وعطلوا موهات الدافع بالمسامير الكبيرة ، وتم الاستيلاء على الجسر . ولكن أبدع ما في هذه الحكاية كلها أن الرقيب الذي كان مكلفا بأعطاء الإشارة لإطلاق النار ونسف الألغام ، عندما رأى القوات الفرنسية تجرى إلى الجسر أراد أن يطلق النار ، ولكن المارشال « لان » جذب ذراعه ، غير أن الرقيب الذي يبدو أنه كان أذكى من جنراله جرى إلى أور وقال : « يا أمير ! انهم يخدعونك ! ها هم الفرنسيون ! » وأدرك « مورا » أن اللعبة سنكتشف إذا هو ترك هذا الرقيب يتم كلامه ، فتصنع الدهشة

المبالغة ! اليس جسكونيا حقاً ؟ ! » وخاطب أور سبرج قائلا : « هذا هو الانضباط النمساوى الذى يطريه العالم أجمع ! انترك رجلا وضع الرتبة بكلمك هكذا ؟ » وكانت ضربة معلم ! فقد أحس الأمير أور سبرج أن كرامته جرحته وأمر بالقبض على الرقيب في الحال ! ... ولكن عليك أن تعترف يا أمير أندريه أن كل هذه الحكاية عن جسر تايور بديعة ، فلا هي غباء ، ولا هي جبن ...

فقال الأمير أندريه بصورا لنفسه المعاطف الرمادية والجراح والدخان وصوت النيران والمجد الذى ينتظره :

— بل لعلها الخيانة !

— ولا هذه أيضا ! وما هو البلاط في مازق نظيع ، انها ليست الغباوة ، ولا الجبن ، ولا الخيانة .. فالحال كما جرى في (اولم) شيء يتفرد به ماك .

وغضن حاجبيه ، ثم ترك الغضون تنبسط بسرعة علامة على رضاه عن نفسه لا ابتداء هذا التعمير ، وانصرف بإبتسامة باهتة لتفحص أظافر يده ثم نجاة التفت إلى الأمير أندريه الذى كان قد نهض ليذهب إلى حجرته :

— إلى أين ؟

— لا بد أن أرحل .

— إلى أين ؟

— إلى الجيش !

— ولكنك كنت تنوى أن تقضى هنا يومين آخرين .

— أما الآن فانا راحل على الفور ...

وبعد بضع كلمات متعلقة بقرنيات رحلته ذهب إلى حجرته . فخلق به بيلييين في حجرته وقال له :
— أندري يا فتى العزيز أتى كنت أفكر فيك . لماذا أنت ذاهب ؟

ودعها لحججه حول هذا الموضوع اختفت كل الفضول من وجهه . فنظر إليه الأمير أندريه متسائلا ولم يجب .

— لماذا تذهب ؟ أنا أعلم أنك ترى واجبك أن تصرع إلى الجيش ، وقد صار الجيش الآن في خطر . انهم هذا يا فتى ، هذه هي البطولة .

فقال الأمير أندريه :

— ليس في الأمر شيء من هذا .

— ولكنك فيلسوف . فكن فيلسوفا بالكامل ، وانظر إلى الأمور من الجانب الآخر وستسرى أن واجبك — على العكس — أن تحافظ على نفسك ، ودع ذلك للآخرين الذين لا يصلحون لأي شيء آخر . . . وأنت لم تتلق أمرا بالعودة ، ولم يؤذن لك في الانصراف من هنا . فلك إذن أن تبقى وتذهب معنا إلى حيث يذهب بنا حظنا المائر . يقولون انهم ذاهبون إلى أولتز وهي بلدة ساحرة جدا ، ويمكننا أن نرحل إلى هناك بكل راحة في مركبتى .

— حسبك مزأحا يا بيلييين !

— بل أنا أكلبك باخلاص كصديق . فكر أين تذهب ولأي هدف ، في حين أنه يمكنك البقاء هنا . وإياك بديلان ، فلما أنك

لن تصل إلى الجيش قبل عقد الصلح ، أو تشارك كل جيش كونوزوف في الهزيمة والمعار !

فقال الأمير أندريه ببرود :

— لا يمكننى الدخول في هذه التفاصيل .

وقال في نفسه :

— أتى ذاهب لانقاذ الجيش .

فقال بيلييين :

— يا عزيزى ، أنت بطل !

(انتهى الجزء الثانى من ملحمة)

(الحرب والسلام) ، عويليه الجزء الثالث)



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ ..

في الكتاب السابق ، الذي قرأت فيه الجزء الأول من أول ترجمة «مصرية» كاملة أمينة لهذه الرواية الرومانسية التاريخية الخالدة التي ترجمت من قبل إلى جميع لغات العالم الحية ، عشت معي في صحبة أبطالها من سكان (موسكو) خلال حلبة غزو نابليون الفاشل لروسيا .. عشت مع « ناتاشا روستوف » ، الابنة الحسنة لإحدى عائلات موسكو العريقة .. ومع شقيقها الأكبر « نيقولاى روستوف » ، ومع

الأمير الروسي الثري « اندريه بولكونسكى » ، وأخته الأميرة « ماريا بولكونسكى » ، ووالدهما المستبد الأمير المفسد « بولكونسكى » .. ثم عايشت بقية أبطال الرواية : « كوتوزوف » ، القائد الأعلى للجيش الروسي منذ أغسطس ١٩١٢ .. وغريمه القائد الفرنسي الغازي « نابليون بونابرت » .. ثم انشأ « بيزو وهووف » الابن غير الشرعى « لكوت » من أثرياء موسكو ، وزوجته الحسنة المنحلة الخلق « ايلين كوراجين بيزو وهووف » ، وشقيقها « اناطول » .. الخ ..

واليوم ، في هذا الجزء الثاني من الرواية الخالدة ، نتابع معايشة هؤلاء الأبطال جميعاً ، في ظل الحرب الضروس التي شنها « بعبع » أوروبا يومئذ « نابليون بونابرت » على وطنهم ، وهى الحرب التي خيم ظنها المخيف على مختلف نواحي حياتهم !

حنلى مراد

١٠٠ قرش

